علاء الدين سعد جاويش

تأملات

حول نساء الحياة



تأملات
حول نساء الحياة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

علاء الدين سعد جاويش

تأملات
حول نساء الحياة



الكتاب: تأملات حول نساء الحياة

الكاتب: علاء الدين سعد جاويش

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٠

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى:

وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٣٤٥٨

الترقيم الدولي: I.S.B.N.978-977-496-007-9

جاويش، علاء الدين سعد.

تأملات حول نساء الحياة/ علاء الدين سعد جاويش. – ط١. – الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٠.

١٩٢ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩ – ٠٠٧ – ٤٩٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

١ - النساء – تراجم.

أ - العنوان ٩٢٠.٧٢

الإهداء

إلى الذين توافقت أفكارهم معنا فهاجمونا.

علاء الدين سعد جاويش

ستظل الحكمة هي التي تقودنا حتى نصل إلى عتباتها،
أما الولوج في أعماقها، فذلك ما لا نرضاه لأنفسنا،
وإن ارتضته لنا السماء، فإنه يصعب علينا أن نتخلى عن بشريتنا،
ونتحول إلى ملائكة حكماء.

علاء الدين سعد جاويش

بين يديّ الكتاب

إن الكتب هى القيمة التالية مباشرة للإنسان ذاته، وقديمًا قالوا إن الإنسان لم ينتج شيئًا يشابه الكتب.

والحضارات تقوم على عقول فذة تبتكر، وسواعد فنية تنفذ، وهذه الحضارة لا بد وأن خير إنتاجها هو الكتاب.

والمبدعون والخلاقون الذين أنتجوا للبشرية زادًا روحيًا عميقًا وأودعوه في كتب، تلك الكتب قد خلّدتهم، والسماء عندما أرادت تعديل حال البشرية المعوَّج، وتقويم سلوكها أرسلت الرسل معهم الكتب ليبينوا للناس.

وقد يكتب الكاتب أو العالم أو الرسول أو الفيلسوف كتبًا بنفسه، أو يكتبها من بعده تلامذته، كما كان من أمر البشارات الأربع أو الخمس وكما كان لفلسفة سقراط. وغير ذلك كثير.

وقد قيل "يوزن يوم القيامة مداد العلماء، ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء"[١]

والكتابات التي تناولت قيمة الكتب غير ممكن إحصائها ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وقد قيل إن إمكانية تحصيل العلم تتجلى فى عدة إمكانات: أولاً: وهي التي انقرضت تكون بالوحي الإلهي سواء أكان الوحي مباشرًا بين الرب

---

(1) يعزى هذا القول إلى الرسول الخاتم.

والرسول، أو بواسطة حجاب أو عبر رسول من الملائكة أو الرؤيا في المنام كحال إبراهيم وغيره من الرسل. وثانيًا: قد يكون العلم بواسطة التأمل والاستكشاف وإعمال قدرات العقل، وهذا لا يكون للفلاسفة، ثالثًا بالتعلم الذي يكون بواسطة إما معلمين أو كتب.

والراجح أنه عندما يكون حجم المتعلمين كثير فليست هناك طريقة أفضل من الكتب.

ولكن بتنوع العلوم والمعارف تتنوع الكتب والكتابات وفي عصرنا الراهن نحن نراهن أن العلوم المعروفة فوق أن يجمعها رجل أو تحصي كتبها مكتبة كانت ما كانت تلك المكتبة.

ولعلي كتبت قبل اليوم عدة كتب يطلق عليها روايات أدبية، لكني الآن في هذا الكتاب أتناول بالبحث والتأمل الزمن الماضي قريبه وبعيده، أتناول أحشاء الزمن من جوف تكوينه، وأرتب هذا الكتاب للحديث عن النساء اللاتي تواتر ذكرهن في غالبية الكتب المقدسة وذاكرة البشرية.

ولقد بذلت جهدي في اختيار نوعية النساء اللاتي ذكرهن التاريخ، وهؤلاء النساء جئن في فترات متباعدة وأزمان غابرة وبعضهن قريب إلى أبواب حضارتنا، وعملي في هذا الكتاب يقوم على تحليل سريع للمرأة بوصف حالها وكيفية اشتهارها وتوضيح قيمتها، ثم نعرج إلى تحليل الميزة التي امتازت بها هذه المرأة دون النساء، ونسلط عليها الضوء، واضعين نصب أعيننا أن للنساء ميزات خاصة تميزهن عن الرجال، وقد نستعين ببعض الكتب السماوية أو لا نستعين، وهدفنا من هذا الكتاب هو تسجيل شهادتنا نحن على هؤلاء النسوة، يقنع بذلك من يقنع ويُعرِض من يُعرِض، فليس همي

هو الإقناع والاستمالة لأحد، ولقد كان جهدي الأعظم في هذا الكتاب هو محاولة الوصول إلى الموضوعية الكبرى والتحرر تمامًا من الانتماء لمذهب أو ملة حال الحديث عنهن.

وليس معنى ذلك أنني أتجرد من ذاتيتي وملتي فلم يُحسن لأحد ذلك، بل ولم ينجح في ذلك من أراد.

لكني أعمد إلى الكتابة من وحي العمل للإنسانية كلها، باختلاف مللها وألسنها وجغرافيتها ودرجات رقيها... إلخ.

فإن خالفنا أحد فهذا وارد، وإن وافقنا أحد فليس لنا عليه فضل.

وأعود فأقول إن هذا الكتاب ليس كتاب تعليمي ولا أدعي له العصمة من الخطأ، بل إن رأيي صواب يحتمل الخطأ (كما كان يقول الشافعي) ورأيى هو من عندى، قد أخرجه فيملأ الآفاق أو يعود إليَّ.

ولكني أقول كن رجلاً ولا تتبع خطواتي فقط راقبني بحذر.

إن الحديث عن النساء هو الحديث عن نصف الحياة إن لم يكن الحياة كافة، ولن أتعرض للمقولات التي حيكت حول جياد النساء، ولن ألتفت إلى إنتاج الرجال من الآراء والنظريات الخاصة بالمرأة.

فالمرأة أجلّ وأعظم من أن تحيط بها نظرية أو فلسفة، فهي كالهواء حرة طليقة أو كالشمس قوية مضيئة، وكالنسيم خفيفة هامسة غير مزعجة، والمرأة عندنا لها شأن سنوضحه بين دفات الكتاب.

وقد نقفز مع النساء قفزات بعيدة حسب المرأة التي نحلل لها، ولسنا نعمل كالمؤرخين ونأتي بالتسلسل التاريخي لظهورهن للحياة وإن لم نخالف ذلك كثيرًا.

أعترف بأن بالكتاب صدمات وتجرؤات وخطوات للأمام قد يحسبها البعض شططًا، لكنها عملي وجهدي المتواضع وأعترف أنني ربما أكون قد عجلت بالكتابة، وما كان أحراني لو تصبرت. لكني أغري النفس وأقول أسجل شهادتي عن نساء الحياة، وإن جاءت مبتورة أو يعتورها خطأ خير من الموت دون ذلك.

فإلى الكتاب

د. علاء الدين سعد جاويش

٢٠٠٧ م

مُقَدِّمَة

هذا السفر:

هـذا السفر الجديـد أضعه اليـوم حـول تـأملات خاصة لـي، وإن كنت أعتزم نشرها على الملأ.

وإنـي غـير مطالـب لأحـد أن يـؤمن بهـا تطرفـت، أم اعتـدلت، حالفت الصواب أم جانبته، بل هى نظراتـي الخاصة وليكن لها ما يكن من وقع على من قد يقدَّر له أن يقرأها.

أريد بهذا الكتاب أن أتعرض لأهم نساء الحياة وأطوف بنظرات خاصة حولهن غير حاكيًا لأساليب معيشتهن ولا واصفًا أحوالهن وصف المؤرخ، أو ساردًا ما كان يداعب خيالهن كروائـي أو واصفًا شعورهن وتباريح الهوى عندهن كشاعر، فأنا أتجرد من المؤرخ والروائـي والشاعر، وأنظر لهؤلاء نظرة المتأمل، ولا أود أن توصف نظراتـي إليهن بنظرة الفيلسوف، فطالما أرهب النساء نظرة الفيلسوف إليهن. وخاصة إن أسقطنا نظرة إمام أئمة الفلاسفة الفيلسوف (سقراط).

ونعود فنكرر إن دراساتنا اليوم هى قراءتنا نحن، وقد نتغير نحن، ونتبدل، وتبقى دراساتنا هذه محفوظة بين دفتي الكتب.

فإنا نبرأ منها إن تغيرنا وتغيرت نظرتنا للأشياء وللماضي من حولنا، لهذا نقول كن رجلاً ولا تتبع خطواتي فقط راقبها بحرص شديد.

ولطالما كنا سنتحدث عن المرأة في عصر مضى وانقضى، فلا

ريب أن مدخل دراساتنا عن النساء ستعود إلى أول امرأة تحمل هذا التواجد الأنثوي على سطح الكرة الأرضية.

ما قبل وجود المرأة

لسنا نقف على كثرة ما قرأنا – وإن لم نكن نعتمد كثيرًا على ما قرأناه – وإن كان كثيرًا – كثيرًا – على حقيقة الخليقة، لكن المتواتر والأشهر عن العالمين الآن أن آدم هو الأصل، وأنه هو البداية الأساسية لكل الإنسانية ولكل البشرية، وعند الإسلاميين أن آدم هو المقصود والمعني في القرآن في سورة البقرة بأنه هو الخليفة في الأرض. (٢/٢٩)

ولا نظن أن دينًا ما يُرجع البداية لغير آدم، وإليه ينسب الناس كافة، ومن بعد طوفان نوح الذي لم نر من ينكره بات نوح هو الأب الثاني للإنسانية، وإلى سام وحام ويافث تنسب كافة طبقات الإنسان من بعد عندما انقرض نسل غير هؤلاء وظل نسلهم وحده، لكن الراجح في دراسات العلماء أن الإنسان كخلقة قد تطور تطورًا شديدًا في كل شيء حتى لكأن الله عندما خلق آدم لم يكن لنا أن نتصوره مثلاً كهيئة كاتب تلك السطور، ولا كقارئها. بل له هيئة أخرى وإمكانات أخرى، فالبعض أخبر عنه أنه لما خُلق كان طوله ستين ذراعًا، وما زالت أطوال الناس تتناقص لليوم، والإنسان كخلقة عادية بل وعقلية ونفسية وربما دينية قد نما وتطور، واستجدت له أجهزة من ذاته يستعين بها كقشرة المخ وبعض مراكز المخ، وزيادة في فصوصه عندما تلح الحاجة إلى وظائف عقلية جديدة يخلق له ما يقوم بهذه الوظائف إلى آخر ما ذهب إليه العلماء في هذا الصدد.

ولا سبيل بنا إلى مناقشة اختلاف الناس في كل شيء، لكن ما دمنا قد رأينا أن آدم هو الأصل والأساس كله، فلا تبك.

ولنذهب إلى حيث وجد آدم ولكن كيف بدأ؟ معلنين مبدئيًا أننا لا نلتزم إيراد أسانيد لما قد نرويه من أحاديث عن هذه الغيبيات لأن من حدَّث عنها لم يشهدها.

قالوا إن الله (والمقصود بالله هنا هو الخالق الذي يعود إليه كل شيء والقادر على كل شيء، والذى لم يدلنا عليه دين بعينه لأنه لم يكن هناك أديان) لما أراد خلق آدم أرسل ملاكًا للأرض ليأخذ منها قطعة، فاستعاذت بالله من عمله فأعاذها، ثم عاد (جبريل حسبما يُقال) أو كذا فعلت الأرض مع إسرافيل أو ميكائيل، إلا أنه لما استعاذت الأرض من عزرائيل استعاذ هو بالله أن يأمره الله أمرًا لا ينفذه، فأخذ قطعة منها كافة، ويعزو العلماء سبب اختلاف الأجناس الإنسانية لاختلاف طبيعة الخلق الأولى لاختلاف طبيعة الأرض من مكان لآخر. كذلك فإن عزرائيل هو الموكل بقبض الأرواح.

ثم خلق آدم من هذه المادة في مراحل لم يتحدث عنها تفصيلاً سوى القرآن الكريم. إذ خلقه من طين ثم صلصال كالفخار ثم حمأ مسنون... إلخ. في سبع مراحل متعاقبة ومتتالية لا يعلم سرها وكنهها يقينًا إلا الذي أوجدها.

ولسنا نعلم كم من الوقت مر عليه دون نفخ الروح فيه، كما أنهم قالوا: إن إبليس كان يمر عليه وهو كالتمثال دون حياة، فيقول له اعلم أنك ما خلقت إلا لأمر عظيم.

ذلك أن إبليس كان من سكان الأرض وهو من أكبر الذين فسقوا عن أمر ربهم فعذبهم إلا أن إبليس سجد واقترب حتى عُدَّ من الملائكة بنصوص كثيرة أهمها استثناءات القرآن له حال الأمر بالسجود لآدم. (انظر الكهف مثلاً).

نعود فنقول: نفخ الله في آدم الروح بعد تسويته بشرًا ولا ندرى

أكان حقًا يهزأ به إبليس قبل نفخ الروح أم أن إبليس كان مشغولاً عنه بعبادته لله، لكن الراجح أن إبليس قد اهتم لأمره كثيرًا.

والله قد أمر ملائكته أن تسجد لآدم، وهو قطعًا سجود تعظيم لا سجود عبادة، ولسنا ندري لماذا يُعظّم آدم وللآن لما يفعل شيئًا، ولما نره طُلب منه شيء.

لكنهم قالوا إنما كان هذا السجود تكريمًا له، ولسنا ندري كذلك لِمَ كُرِّم ولما يفعل شيئًا يستحق التكريم.

قالوا إن الله إنما كرَّمه إذ علَّمه أسماء كل شيء وجهلت الملائكة ما علم آدم.

إلا أن غالب الظن أن آدم خُلق لأغراض أخفاها الله عن الملائكة والأبالسة. ولما جعل الله آدم بشرًا سواه الله بيده وسجد له من سجد وتكبر عن السجود من تكبر، وجعل آدم يسبح في الجنة في أيام طوال دون أن يجد له أنيسًا ولا ونيسًا. حتى خلق الله له من ضلع في صدره حواء، وقيل إنها سميت بحواء لأنها خلقت من كائن به حياة، وقال بعضهم بل لأنه بها تحيا الحياة وبدونها فالدنيا صحراء وتيه... إلخ.

ولما خلقت حواء نظر إليها آدم فقال لها: من أنتِ؟ وهو ينظر إليها دهشًا مستغربًا.

قالت بهدوء: أنا حواء! قال: لماذا أنتِ حواء؟ قالت: لأني خلقت من حي!

ثم جاءه جبريل وعرَّفه إليها، ثم أراه كيف يضاجعها وكيف يأتيها، حتى إذا أتاها جبريل سأله من بعدُ: كيف وجدت زوجك؟

قال آدم مسرورًا: بخير.

وربما وجدت الرغبة الجنسية لدى آدم عندما تواجدت المرأة،

وقبلها لم يكن لوظائف الجنس وأعضائه عنده أهمية!

نظن لو أن جبريل سألها هي كيف وجدتِ زوجكِ وكانت هي التي تجيب لانعكس حال البشرية، ولسعت النسوة بشكل لا يشوبه علامات الخذلان والخجل إلى السعادة الجنسية، ولبذلت من أجلها الغالي النفيس إلا أنه آدم هو من يطلب ذلك طوال التاريخ، ولترى حواء نبرة الفرح في حديث آدم، فيغلب عليها (بطبعها الذي جبلت به بعد ذلك) أن تكتنز هذا الإمتاع كأقوى أسلحتها ضده على الأبدية.

وقالوا إن حواء أنشط وأدق من آدم في المشاعر وقوة الأحاسيس والحدس، حتى صارت تمتلك حاسة لا يفقه عنها آدم شيئًا، وأن بوجدانها خير من عشرات الآدميين من الرجال، ويعزون ذلك كله إلى أن حواء إنما خُلقت من كائن حي به الروح وحياة وحركة، عكس آدم خُلق من جماد استغرق مدة طويلة إلى أن صار كائنًا به حياة (قال البعض سبع مراحل) وله مناشط الحياة الطبيعية.

دخل آدم الجنة مصطحبًا زوجه حواء يهيمان ويعيشان معًا، ولكأننا نلحظ هنا أن آدم إنما خُلق للعبادة، ولمهمة إعمار الأرض واستخلافه فيها.... إلخ.

أما حواء فلقد خلقت ردفًا ومعاونًا لها وظائف ليست كثيرة، أهمها إضفاء المتعة واللذة لآدم في حال شقوته إن مرت به شقاوة، كذا الحفاظ على النوع عن طريق رحم يدفع لأرض تبلع.

ولم نلحظ أن الله قد كلفها ما كلف به آدم، فلم يُسجد لها الملائكة، ولم ينفخ فيها من روحه، ولم يخلقها بيده بل قال لها كوني فتكونت. على أغلب الظن، وإلا لاحتوت الكتب التي أنزلها الله وتحدَّث فيها عن هذه الجذور التأسيسية للبشرية عن كيفية خلقه لحواء، وإنا لنجد القرآن يقول ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى من

آدم، فهل ينسحب ما كان لآدم عليها بصفتها جزء منه، وأن ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء المتفرع عنه، أم أنه في مجال الخلق هذه المقاييس تتفاوت؟!

ويظن البعض أن هذا يعني أن حواء غير طاهرة وأنها لا ترقى إلى أن يلمسها الله بيده، أو يُسري فيها روحه، ولا هي أعظم من الملائكة كي نعظمها، وبنوا على ذلك ونظروا لبيولوجية خلقها وما يعتورها من حيض وطمث ونفاس وغيره، على أن كل هذا قذارة ودنس فليس لها ما يجعلها من العظمة مثل آدم، ولن تتساوى به أبدًا، لذا فإن آدم هو السيد وهي الخادمة أو التابعة أو الأمْة طوال الأبدية.

ولما دخلا الجنة معًا، كانا يتمتعان، ولسنا نظن حتى هذا الحين أنهما فعلا شيئًا من طقوس الطاعات حتى يتقربا إلى الله ويدخلا الجنة، لولا أنهما بقرب الحضرة الإلهية ومن حضرها فلا يشقى.

ولقد اختلفوا كثيرًا حول هذه الجنة، أهي جنة الدنيا أم جنة الآخرة، ولكل عدة تأويلات منها أن الجنة التي تضاد النيران لا يدخلها إلا بصالح العمل بعد الاختبار والابتلاء والصبر والنجاة... إلخ.

وكأنهم نسوا أن الله إن يُعط شيئًا فلا ممسك له وأنه برحمته وقدرته يفعل ما يشاء، كما أنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

لكن الذى يهمنا أن آدم أخذ زوجه ودخلا الجنة ويكون الابتلاء في هذا النعيم نفسه، فكل شجر الجنة متاح ومباح إلا شجرة واحدة متاحة وغير مباحة، لا يقربانها أبدًا.

ولكن مهلاً فإن كافة المرويات التي تنقل إلينا هذه الأحداث إنما تخبرنا كذلك أن الشيطان قد دخل معهما تلك الجنة، وكأن وظيفته أن يفسد عليهما تلك السعادة، قالوا دخل في جوف الحية،

والشيطان يعلم ما يُباح لآدم وزوجه وما لا يُباح فهما يأكلان رغدًا حيث شاءا إلا واحدة نُهيا عنها أبدًا، فوسوس لهما أن يأكلا منها واصفًا إياها بأنها شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى أبدًا.

ويزعم البعض أن آدم امتثل لأمر ربه وامتنع طويلاً، إلا أن أبليس عندما يئس من آدم اتجه إلى زوجه بما لها عليه من مكنوزات للسعادة تبثها آدم، أن تحرمه منها، ووسوس إليها، بالملك الذي لا يُبلى، والخلود في هذه الفيحاء وأن الله أخفى عنهما سرها ليكتشفاه بأنفسهما فيكونا ذوا فضل على الملائكة، وهذه الاكتشافات هي سبب الخلود في الجنة، فامتثلت له أو للحية، وأطاعت، ودعنا نتصور ما حدث بعد أن أدخل الشيطان إلى خلد حواء هذه المعصية لأمر الله فيها، نظن أن الشيطان قد خرج من الجنة وانصرف إلى أمور عبادته، وهو يرقب ماذا يحدث لهما، ولعل أي عقاب يحل بإبليس لا يثنيه عن ابتهاجه بنجاح مساعيه. حتى هذه الآونة لم يكن لآدم ولا لحواء مخلفات بشرية أو فضلات، ويجيب عنا البعض الآخر بأن الحال في الجنة يشبه حال الجنين يأكل مما تأكل منه أمه دون أن يكون له مخلفات لكن مهلاً... هل ذلك يعني أن حواء لم يكن لها طمث ولا حيض ولا... ولا... إلخ.

ربما... إذن هي كانت طاهرة، ربما!

طاف آدم بالجنة حيث شاء وأظن أنه لم ينبهر بها كثيرًا وهي في عمومها لم تعجبه غاية العجب، ولم يستوحشها فهي له سكن، كأمير ولد في قصر ولم يرَ في الدنيا سوى هذا القصر، فما تأخذه زركشته ولا زخارفه، لأنه لم يز — كما قلنا — ما هو أسوأ منه أو أحط منه كي ينبهر بما هو فيه، طالما كل شيء فيها مباح يتدلى لا مقطوعة ولا ممنوعة فلا نصب ولا عمل، وهو أصلاً للآن لما يعمل شيئًا سوى الاغتراف من المتع، ما كان

يظن أنه سوف يُحرم من هذا النعيم حتى يغترف منه بشيء من الاختزان للغد، ليملأ في جنبات نفسه ما يمكن أن يسمى فيما بعد بالقناعة هو يهيم على وجهه، يبذل طاقة لغير طائل، ويسير في الجنة، ربما لم يكن يشغله في كل هذه الأثناء سوى الله.

لكنه لما لم يجد اللذة الحقة - كما نعرفها نحن اليوم - من تحصيل الملذات بعد تعب ونصب، فإنه اتجه إلى زوجه ينكحها يصيب منها متعة فهي الشيء الذي علّمه إياه جبريل، ولعله لم يعلمه كيف يتلذذ في الجنة كما علمه كيف يأتي حواء، فإن قربه منها الآن طاعة للرب، ولقد روي عن (الرسول الخاتم) ما يشبه ذلك بل يطابقه فيعود إليها ليطلب هذه المتع التي يجنيها ولا يشعر بلذتها، وكأني به قد بات يشك في ملتها.

فالمتعة الفردية تخالف النظر لعيني حواء وهي معه، إذن فليروي ظمأه منها، وليذهب إليها، فلما أن اتخذ إليها طريقه، هي في انتظاره يدور في خلدها هذه الشجرة، وذلك المُلك الذي لا يُبلى والخلد الذي ليس بعده بعد، وليس ورائه وراء.

لكن مهلاً، ما كان أدرى حواء أن ما هم فيه ليس له خلود وما كان أدراها بأن هذا النعيم سينتهي قريبًا وأنه حتمًا سينقضي؟ أي من أدخل إليها فكرة الزمان ودورانه؟

لا بد أنه الشيطان هو الذي همس في أذنها وكأنه قال لها - ولو كان المتحدث هو الحية -: أيتها المرأة إن زوجكِ ذو عضلات وقوة فلئن خرج من النعيم فلن يشقى سواكِ، وتلك الشجرة التي نُهيتما عنها هي التي تجعل لكما الخلود ولا تخرجان أبدًا من تلك الجنة. وكأنها هي بوابة الخلود وكأن حواء تفكر في أمر آدم، إذن هو قوي لن يشقى ما خرج من هنا فلسوف يسعى على معاش وقد لا يسعى، بل قد يستبدلني من عند ربه بأخرى، ليس لي إذن

سوى الحصول على المُلك الذى لا يُبلى.

كانت هذه الأفكار تراودها وآدم يأخذ طريقه إليها فلما أن وصل إليها، استغرقتها نظرته الحانية الهادئة الواثقة فأضمرتها حقدًا وحسدًا وتراءى لها الشيطان وهو يخبرها كأنه يتوعدها بأنه قوي لن ينفلت منه الأمر إن خرج من الجنة، والخاسر الأوحد هو أنتِ.

فلم تبادله النظرات، بل عبست، وأخذت تمكر وتفكر فاقترب منها، وأخذ يهديها قبلات ويهيم بها، فزجرته بنظرة قوية، أرهبته، وجعلته يتراجع وهو يتساءل: ما الذي جعلها لا تطيعني، هل عصيت الله فعصتني مخلوقاته؟

ولم تمهله طويلاً وقالت: يا آدم، أفلا تخف أن تخرج من هذا النعيم المقيم؟ يعترينا الفقر والعوز والحياة قفار؟

فرد هادئًا: ما دمت في طاعة ربي ولم أخالفه فلن يضيعني.

فتمتمت تقول: وإن ضيعك فمعك ما يحميك ولن يضيع سواي.

ثم قالت له: ما رأيك يا آدم أن تلك الشجرة التي نهاك ربك عنها قد رفع نهيه اليوم وجاءتني بعض الملائكة تزف إليَّ البشرى بأن هذه الشجرة هي شجرة الخلد.

فاستغرب قولها، فلما رأته دهشًا، فاحت منها ابتسامة حلوة، أنعشته ثم أقبلت إليه تقبله وهي تقول: لا خوف من اليوم فصاعدًا، فلسوف يقيمنا الله دومًا في الجنة، هيا بنا يا آدم نأكل منها ما نشاء حتى نعدَّ من مصاف الملائكة.

فقال لها: كيف آكل منها حيث شئت وأنا لم أشتهها وإن كان الأكل منها يجعلني في عداد الملائكة فأنتِ لا تعلمين أني خير الملائكة بل هم يسجدون لي وأعلم من عند الله ما لا يعلمون.

فقالت: كيف؟

فلم يشأ أن يزيدها وقال: بلى! أنا زوجك أناكحك هل للملائكة مثلي أزواج؟

فمضت عنه بعيدًا وهامت تمشي في الجنة وحدها فخفَّ إليها، وطلبها لنفسه فامتنعت وقالت: لن تطأني حتى تؤكلني هذه الشجرة.

فتركها ومضى بعيدًا هو الآخر، يفكر في الأمر، ذعرها بُعده عنها، لكن الشيطان جاءها وهي تكاد ترجع إليه، تعتب إليه نفسها، فجاءها يقول: بل هو ترك طول الجنة وعرضها إليك لائذًا بك، فامتنعي عنه فلسوف يعود إليك، ولا ترضي سوى ما تريدين.

وذهب إليه وقال له: يا آدم أتترك زوجك وقد أمرك الله ألا تفارقها، قارن بينها وبين الشجرة هذه، إن الشجرة وإن كانت بها حياة، فهل حياتها كحياة حواء، بل هل كل ما في الجنة من لذات في كل الشجر يساوي اللذة عندها إنها بعضك، وإن لم تصلها وتستمع إليها، فلسوف يفتنك ويأتيها بزوج غيرك يناكحها فتطلب منه أن يؤكلها الشجرة فيفعل فيديمها الله عليه.

فكان لهما ما شاءا.

وحلّت بآدم الكارثة، وفوجئ بفضلات تخرج منه، وتبدت له سوءته التى أخذ يتوارى منها خجلاً، (انظر القرآن سورة الأعراف) وعالجت حواء مرارة آدم.

هنا فزعت الملائكة وكأنها بدت شامتة في آدم هذا الذي عظمته وسجدت له.

لكن الله – الذي خلقه رحمه فهو خالقه – عاتبه عتابًا خفيفًا.

وهنا يقول بعضهم إن هذه كلها إلا مرحلة من مراحل الخلق، وما آدم إلا مدفوع لفعل هذا كي يكون من بعده ما يكون. (ولنا نظرات أخرى في هذه الأمور نبسطها في غير هذا السِّفر)

ولقد قال البعض إن الله قد عاقب آدم وحواء والحية التي امتطاها الشيطان كلُ عوقب بعشر خصال.

أما خصال حواء التي عوقبت بها فهي.

١ - وجع الافتضاض.

٢ - الطلق.

٣ - النزع (أى يُنزع الولد).

٤ - قناع الرأس.

٥ - ما يصيب النفساء من مكروه.

٦ - القصرُ في البيوت.

٧ - الحيض.

٨ - ما يصيب الوحمى من مكروه.

٩ - الرجال قوامون على النساء.

١٠ - تكون أسفل عند الجماع.

أما خصال آدم فهي:

١ - انتقص من طوله.

٢ - جعله الله يخاف من الهوام والسباع.

٣ - نكد العيش.

٤ - توقع الموت.

٥ - سكنى الأرض.

٦ - العُري من ثياب الجنة.

٧ - أوجاع أهل الدنيا.

٨ - مقاساة التحفظ من إبليس.

٩ - المحاسبة بالطرق.

١٠ - ما أطلق عليه من اسم العصاة.

وأمَّا الحية فإنها عوقبت بعشر خصال هي:

١ - ينقص جناحها.

٢ - قطع أرجلها.

٣ - المشي على بطنها.

٤ - بإعراء جسدها.

٥ - شق لسانها.

٦ - أُلقى عليها عدأوة الناس.

٧ - مخافة الناس.

٨ - جعله لها أول ملعون من لحم ودم.

٩ - بالذي ينسب إليها من الكذب.

١٠ - بالذي يُنسب إليها من الظلم.

ولقد أعطى الله له كلمات فتاب بها وقال البعض إنه رأى التوحيد ورسالة محمد على العرش، فاستشفع بهما فشفع له.

ويقال إن الله عالج الأمر من جذوره وأعلم آدم أن الخطأ إنما كان بوسوسة الشيطان لحواء، لذا أعلمه أن العدو له هو الشيطان، وأراه أن حرمانًا من الجنة أصابه لهذا العصيان، فإذا تبع هذا العصيان بآخرى فليس إلا العذاب بالنار.

فامتثل آدم لأمر ربه، وطلب الشيطان أن يرافقه إلى الدنيا، فيكون سببًا في إهلاكه بنيران جهنم، لكن الله تحدى الإرادة الخبيثة لإبليس، وأعلمه أنه ليس له سلطان على عباده والملائكة هنا يقفون على الحياد، فهذا الصراع الآدمي الإبليسى ليس لهم فيه

حيلة، ولم يرد أنهم تفوهوا بكلمة، أو كان لهم دور ويُعزي البعض ذلك بأنهم قوم مسيرون لا يأتي منهم سوى الخير المطلق.

كانت الخطيئة التي ارتكبها غير قاصرة على مجرد أكله من الشجرة ولسنا نسير وراء ظاهر الآيات في القرآن، بل نغوص فيها لنجد أن آدم استجاب لنزوته ولغريزته، وإنا سنجد هذا الأمر يتكرر كثيرًا على اختلاف طبيعة المعصية في البشرية بعد ذلك، من ذلك أحمر ثمود الذى قتل ناقة صالح، وابن ملجم قاتل عليَ بن أبى طالب، وغير أولئك الكثير من الذين دُفعوا لارتكاب المعصية لإرضاء النساء.

أما آدم فإن مصيبته حسبما نرى أنه لم يسأل حواء ما جعلكِ تصرين على ارتكاب المعصية.

فلو أنها صدقته في الإجابة لقالت: حقدي عليك، خلقك قبلي، وعلمك الله الأسماء، وأسجد لك الملائكة.... إلخ كما ميزك بالقوة عني، وإليك تنسب الأعمال.

لكنها ما كانت تكون صادقة في موقف كهذا أبدًا، بل أضمرت في داخلها إن سألها كذلك أن تقول: هو الشيطان، وقد عُميت.

ولذا فإن أعمق أسرار الرجال بعض وضوح المرأة.

فلو أن آدم تنازل قليلاً عن شهوته وعلم أن الشيطان عدوه، فما كان يستمع لنصيحة لحواء إلا إذا كان كافرًا كفرًا بواحًا، هذا ما لم تذكره الكتب المقدسة، بل أعمته شهوته من حواء عن ذلك وربما يرجع البعض أن ما حدث بين آدم وحواء وإبليس والمعصية إنما كان سببه هو عدم المكاشفة بين آدم وحواء.

ولو كانت هناك مصارحة لما حدث هذا كله.

ويحلو للبعض أن يتحدث هنا عن القضاء وحتميته وأن قضاء الرب نافذ لا محالة، وإنما هي أسباب يسببها.

ونحن نرى أن الخطيئة بكامل مسئوليتها إنما تقع على كاهل حواء بسبب:

١ - لم تخبر آدم أن الشيطان حاورها في هذا الأمر، بل مضت خلف أطماعها التي بشّرها بها الشيطان. ولذا بدت الكثيرات من نساء الحياة غير قانعات، بل القليل منهن فقط.

٢ - إنها استمعت لنصح عدو زوجها الذي أظهر له العداء طواعية، وكم مرة يؤمر بالسجود فلم ينفذ (لأنها تحقد عليه).

٣ - فهي الخائنة لعهد ربها ولعهد زوجها، وإن كانت في جنباتها تحقق متعة لآدم، فهي قد استغلت هذا بالطريق الخطأ.

وإن رأى أحد غير ما نذهب إليه وما قدَّمناه من تفسير، فليأتنا بتأويل آخر لكل ما تراه في التاريخ وما نعاصره، وما سيحدث من كوارث إنما حدوثها بسبب المرأة حتى قال عنها (الرسول الخاتم) لا تقبل إلا ومعها شيطان ولا تدبر إلا ومعها شيطان.

ولقد ورد كثيرًا في الكتب المقدسة وعلى رأسها القرآن أن الرجال حُببت إليهم الشهوات والأموال.

كل هذا يجرنا إلى التسليم بأن حواء هي المسئولة الأولى لا محالة عما حدث لآدم في الجنة، وهذا ليس هناك منْ يشاركه فيها أو يقدم لها غير ما يستطيعه هو، بل هو معه الجنة وقريب من الحضرة الإلهية، بل لا تفكر هي نفسها في غير هذا. ولنا أن نعتقد أن حيضها وطمثها وكافة خبائثها إنما هي رمز للشيطان الذي يسكنها ويبثها سمومه للإنسان عبرها ومن خلالها.

قلنا هذا حال آدم مع حواء وليس سواهما، فما بالنا بحواء الدنيا

والتنازع على الحسناوات منهن عظيم ولم يخلُ منه جيل واحد.

إنها تقف متجبرة مختالة تفعل ما تريد وزيادة فهي غاية تلك الوحوش التي تركت آدميتها للصراع عليها فهي الملاذ.

فليس بقليل علينا أن الحروب الطاحنة تقوم باسم المرأة ولصالحها ولتزيف البشرية أية أسباب أخرى للحروب والعداوات والكوارث، لأنها لا تستطيع أن تقف ضد المرأة وتعلن في ثبات وتحدٍ أن المرأة سبب كل ما ينزل بها من ويلات ومصائب.

إننا نكتب – وقاك الله – كل هذا ونؤمن به، وهي الكارثة إنا نلتمس للمرأة في عصرنا هذا – وإن أشعلت جليد القطبين براكينًا – كافة المعاذير ونكاد ندافع عنها، ذلك أنها إنما تفعل ذلك والحياة من حولها تطاحنها، أما حواء فكيف نجد لها عذرًا؟

إنها خلقت من آدم بنص سماوي صريح لا يحتاج للتأويل ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ولولا ذلك لقلنا إنها خلقت من النار.

وبعد أن رأينا هذه الحياة خطفًا في الجنة، وأن المرأة فيها لا ترضى بحالها من النعيم والرغد، بل تطمح لما يسمو عن ذلك أبدًا نستطيع أن ننزل للأرض كي نرى حسناوات الحياة، ومن تجملت بهن الأرض إلى قيام الساعة.

لكن مهلاً ننزل إلى أين؟ تلكم اللاتي أحرقن الأرض بنيرانها، أم إلى أولئك الفضليات اللاتي جُعلن رياحين في الحياة، وتلك القديسات المنعوتات بكل خير وفضيلة في زعمهم.

إننا وقد ذهب بنا التفكير إلى ما لم يكن منه بد فلنذهب إلى الأرض في الفصل القادم وما يليه ولنأخذ أعظم المشاهير والقديسات في غالبية الأديان، واضعين نُصب أعيننا تلك النساء

اللاتي لهن علاقة بالسماء وما يتنزلُ منها.

ولنعرض للنموذجِ المثالي في المرأة قبل أن نعرض للجانبِ السيء منهن، ولنريِ أحقًا عند الجميلات منهن جمال، أحقًا عند القديسات منهن قداسة؟ أم هن آلات وضعت الإنسانية فيهن هذه الصفات فاضطر لإلصاقها ببعض النسوة كي تخرج الإنسانية المرأة من غياهب خُلق الشيطان الذي تخلقت به أطول فترات التواجد الإنساني على الأرض؟

فنحن سنصحب معنا البصر والعقل والبصيرة والوجدان وإسقاط التاريخِ كله لنتأمل حال هؤلاء النسوة اللاتي قطعن للإنسانية فصولاً من تواريخ وصفحات شتى.

الفصل الأول

زوجات الأنبياء

طرح الكثيرون قضية النبوة وزينوها وزركشوها، وقد اختلف اللاحقون بالتفريق بين الرسول والنبي، فقيل الرسول هو من أرسل برسالة إلى قومه ومعه كتاب، وقيل هو الذي يكون وريثًا شرعيًّا للنبوة، وقيل غير ذلك وربما أرجع البعض إلصاق صفة الرسول أو النبي إلى الإخبار بذلك مباشرة بواسطة الوحي، فإن مُنزِّل الوحي أعلم بذلك، وهو الذي كيَّفهم كيف يشاء.

لكنّا رأينا من خلال استقصائنا لهذا الأمر أن النبوة أقل شأنًا عند السماء من الرسالة، فهذا – مثلاً – موسى الذي يكلمه الله ويخبره برسالته نراه يستشفع إلى الله ويطلب منه أن يجعل هارون أخاه نبيًّا. فطُلبت النبوة ولم تُطلب الرسالة، لأنها أعظم، وقالوا الرسل قليلون والأنبياء كُثُر، لكن أكان آدم نبيًّا أم رسولاً، أم لم يكن هذا ولا ذاك؟ واعتباره فحسب أبو البشر، خلقه الله مفطورًا على الخير وطاعته وحبه وعبادته، ثم إنه لم يكن يحمل رسالة ورثت عنه سوى التوحيد، وقيل إن الرسالة تزداد تعقيدًا كلما زاد المجتمع أو القوم الذين تتنزل فيهم.

وقيل أيضًا إن الأمر، إنما يتنزل على قوم كنموذج ولكن آدم لو كان هاديًا أو رسولاً لما خرج من صلبه القريب من يقتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض، قد حرَّم الله قتلها.

ولقد اختلطت الأساطير بالأسانيد المقدسة في تناول حياة آدم بعد مسألة الخروج من الجنة.

لكننا نلتمس لآدم كافة المعاذير، فهو تجاه أعداء ثلاثة لا مهرب منهم هم:

١ - إبليس الذي تطوع بالعداوة من تلقاء نفسه حسدًا عليه.

٢ - الخطيئة التي ارتكبها، ولعمري إن آدم ليظل نادمًا على حرمانه من النعيم ما دفقت فيه الروح، وللخطيئة هذه شروح وشروح سوف تأتي في فصل قادم.

٣ - شهواته وما جُبل فيه من حب أشياء ما كان أغناه عنها، كالملائكة والشياطين أعداؤه، وكذا كيفية تحصيل النعيم في هذا العالم، ومطالبته بالعبادة لله.

لكل هذا فإنه ولا بد يكون الخطأ من عند آدم في حق الله أخفَّ وقعًا على السماء من خطأ غيره.

ذلك لأن لدى آدم من المعاذير في فعل الخطيئة ما قد يطول بسطه هنا إن أردنا ذلك.

فإن كان آدم نبيًّا، كانت حواء أول زوجة للنبي في الأرض، لكنًّا لن يعتورنا خلاف مفاده أن نبوة آدم – إن افترضناها – كانت في الجنة أم بعد خروجه منها سننأى بأنفسنا عن هذه الأطروحات.

لكن زوجة آدم لم تخطئ بقصد الخطيئة (فالخطيئة شيء موحش، لا للأبالسة أن تسكنه) بل هي طمعت، تلك من معاذير الإنسانية، لكن الإسلاميين يرون هذا هو الكفر البواح، لأن عدم الثقة في الله معناه عدم قدرة الله ونزع صفة من صفات الألوهية فيه، وهي القدرة المطلقة يجعل الإنسان كافرًا، فلم تؤمن حواء بأن الله لن يضيعها وآدم قد فُرض عليه إتيانها، وعدم فعله ذلك يمثل

خطيئة له لا تغفر حسب ظنه على الأقل، ناهيك عن اللذة والإمتاع.

قد يتطرق الظن إلى أن نقول - من واقع تلك الأحداث - سبب هموم الدنيا كلها ولا ريب هي النساء والأموال، أي شهوات النساء، وحب الامتلاك، وكلاهما نبع من عند آدم فآدم أحبَّ النساء، والنساء أحببن المال، فجعل الإنسان المال غايته لبلوغ النساء، وما تفرع عن ذلك كثيرًا.

سبق أن قلنا: إن فترة حياة آدم على الأرض يكتنفها الكثير من الغموض المشبع بالأساطير، لكن ما بلغناه علمًا أنه عمَّر ألف سنة، كان قد وهب منها أربعين سنة لابنه داود، ولكنه جحدها من بعدُ.

ثم كانت الإنسانية تتناسل حسبما روي لنا من غير طريق حتى ظهر الشيطان وتمكن من أبناء آدم، ولسنا نظن ونحن بهذا الصدد أن غاية إبليس أن يفعل للإنسانية المنكرات، بل غايته أن يكفر الإنسان بالله، ففعل المنكر أو الخطيئة قد يتوب الله عليه، كما تاب على آدم وسيتوب على غيره فيما بعد، أما الشرك فلن يغفره الله أبدًا، إلا إذا كان قبل الإيمان، كأن يولد المرء مشركًا ثم يؤمن فإن أشرك بعدُ فلن يتوب الله عليه، وهناك عشرات الآيات في القرآن توضح ذلك.

من طبيعة الإنسان حبه للغرائز بل واستجابته لها استجابة تبدو تلقائية، ولا يكون بالضرورة مجبولاً على الشرك بالله، بل إن الشرك هو الاستثناء في أصل الخليقة، وأن الإنسان يعرف الله بدون قيد أو شرط، ولا يكاد يحتاج في ذلك إلى دليل ولا نغوص خلف كتب بدء الخليقة، وتدرج الإنسان والسعي خلف كهنة مصر والصين والهند وأوروبا وبابل... إلخ لنرى أن الإنسان في مجاهله الأولى قد آمن بوجود قوى خفية قادرة على فعل كل شيء لا بد وأن يخضع لها ويُسلِّم لمشيئتها، ولما جاء الكهنة من كل حضارة وفي

كل جنس استغلوا ذلك، بصرف الناس إلى عبادات لآلهة معينة وإلزامهم بطقوس مخصوصة يوجهونها كيفما شاءوا.

لا...!

بل إن الإنسان يعلم جيدًا ما نقره الآن في شتى مراحل الخلق، إلا أن الشيطان ربما صرفهم عن ذلك بتعدد مداخله إليهم فمرة بتوهين عزمه، وأخرى بنزوعه على عبادة العقل، وثالثة بالعقل يكفرون بالله طواعية أدركوا ذلك أم يدركوه.

جاءت النبوة والقول الفصل فيها ليس معلومًا، فقد قيل إن أول النبوة كانت لإدريس، وليس لدينا كثير أخبار عنه، بعضهم قال اسمه اخنوخ، ثم إنهم اختلفوا وقالوا بل أول نبوة كانت لنوح وهو أول الأنبياء.

فإن نحن مضينا خلف هؤلاء، ونظرنا إلى أمر نوح لم نكد نظفر عنده بخبر طويل أو بسيرة مؤكدة، سوى أنه قد ظهر في قوم عبدوا الأصنام، وأنهم كانوا يكفرون بالله الواحد، وينسبون صفة الألوهية إلى عدد من أحجار صنعوها أصنامًا وعبدوها، ولسنا هنا نذهب بضراعة التوسل والقرب من الأولياء والقديسين بعد حين حتى صاروا آلهة أو يقربونهم من الآلهة زلفى.

إلا أن نوحًا عمَّر طويلاً ولسنا نظن أنه دعا قومه إلى شيء سوى إلى التوحيد الخالص، وإفراد الألوهية لله من دون ما ادعوا من أسماء، آمن معه قليل اتبعوه وهم الضعفاء في القوم الأقوياء في نفوسهم الذين لم يعبدوا أنفسهم ولم يعتمدوا على عقولهم. لكنه تواتر إلينا عن نوح أمر عجيب وهو أن زوجه كفرت به وكانت تحرض عليه، بل إن أحد أبنائه وقيل اسمه كنعان قد أغرق مع الهالكين بكفره بنوح ورسالته، ولم ينفعه أن لاذ بالجبل.

نحن نتساءل كيف تكون امرأة نوح كافرة برسالته؟ ثم إنها لما كفرت وأعلنت الحرب ضده وضد ربه لِمَ لم يطلقها؟

أيمكننا الجواب عن السؤال الأول من استبطان الأخبار الواردة إلينا والتي تقضي بأنه لما كان أتباع نوح هم الأراذل في القوم، لم ترَ لزوجها من إمكانات السيادة على القوم شيئًا، وأن من اتبعوه، بل وإلههم هذا الذي يزعمون لا يمثلون ثقلاً في المجتمع، لذا فإنها طوَّحت بالإيمان بهم، ولاذت في أحضان جماعة الأقوياء، حتى إذا نبذتهم الجماعة المكينة القوة كانت في حصن معهم حصين بكفرها بآل نوح وما يعبدون؟

لو كان ذلك كذلك إذن فأسباب الكفر عندها مادية فهي تطمع إلى المجد والسيطرة، وإن خلا جهد زوجها منها فلا طاعة له عندها.

ولكن ألم تسمع لنوح وهو يؤكد على وجود يوم بعث وجزاء، المؤمنون فيه يثابون والكافرون يطوح بهم في المستعرة؟

حقًا... لقد أعماها الشيطان عن ذلك، وخلق لها الله عقلاً منيرًا فأظلمه الشيطان، وخلق لها بصرًا فأعماه الشيطان وآذانًا فأصمها الشيطان ولذا لنا أن نقرر هنا أن كل أسباب الجحود البشري يمكن ردها إلى:

١ - الطمع في النعيم الحاضر دون الإيمان بالغيب ولا شك أن الشيطان يصور الشهادة على أنها كل شيء.

٢ - وعبادة العقل أو إلغاؤه تمامًا بعبادة عقول أخرى، وكلاهما واحد، فكلما أمعن الإنسان في استخدام عقله أجهده، وخرج به إلى نتائج تتساوى تمامًا بل قد تفوق من يُعطل هذه القدرات العقلية، لذا قيل إن بين الجنون والعبقرية شعرة، أظنها إجهاد العقل.

٣ - الحسد والحقد، وذلك يسد طريق القلوب بالإيمان وهذا نفسه

هو العظمة. فكيف يؤمن الضعفاء مع الأقوياء، وأن من سنة الكون طبقات الناس، وحدث (للرسول الخاتم) أن أراد قومه الأعلياء أن يخصص لهم يومًا لعبادتهم دون سائر الضعفاء فرفضت السماء ذلك.

ولذا – أي للسبب الأخير – رأينا أن الأقوياء صنعوا لأنفسهم آلهة قوية، فإن لم تكن قوية كآلهة الأنبياء فهي بتعددها تكون أقوى من الفرد مهما بلغت سلطاته، وهذا أمر منطقي يؤكده ظاهر المنطق الذي هو عمدة ما وصل إليه العقل، إذ أن الكثرة أفضل من الفرد، والجماعة مهما بلغت من ضعف أقوى من الفرد مهما أوتى من قوة.

فامرأة نوح قد دار ذلك كله في خلدها، ولم تحدثنا الكتب المقدسة عن نشأتها أو عوامل حياتها وصراعها مع زوجها.

روت بعض الكتب السماوية أنه ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين ولسنا نظن أن هذه المدة هي فترة دعوته بل هي عمره كله، ولما لم يكن له عمل يؤثر عنه أو قومه سوى دعوته إياهم انسحبت فترة حياته كلها حتى جُعلت كأنها فترة دعوته، وليس عندنا كما قلت من التفصيلات عن نوح سوى أخبار قليلة حكتها التوراة وسرد بعضها القرآن، والمعضلة في الأخبار في القرآن أنه لا يركز على التفصيلات في أخبار الأمم السابقة، بل يهتم بإبراز جانب العبرة والعظة، وامتزاج المرويات الأخرى بالإسرائيليات أو الأساطير يجعلها لا ترقى إلى مرتبة اليقين.

وهب أنها يقينية فليست تكاد تغني من الأمر شيئًا، فليست تعطينا القدر الذي يروي الظمأ تجاه تلك الأخبار. فهل تزوج نوح بامرأة أخرى؟ هل أنجب غير الأبناء الأربعة؟ ألم ينجب بناتًا؟ هل كان من فعل الأنبياء أنهم يظلون على علاقة بالمرأة الكافرة؟ لِمَ؟

من يجيب عن هذه الأسئلة؟ لا أحد ، لست أظن أن هناك من مجيب. فترة طويلة هي كافرة. وزوجها أُشغل عن طلاقها حتى تمام غرقها؟

ولذا فليس أمامنا أمام هذه المغيبات بقصد من السماء سوى استبطان النصوص المروية لنا ، وهنا تتفاوت التأويلات بتفاوت العقول.

ولما كانت امرأة نوح قريبة عهد بحواء آدم، لذا فلا بد وأنها طمحت لما طمحت إليه مما أسلفنا ذكره، ورأت أن ترتكن إلى جانب القوة عند أهلها تكفر ولو بزوجها ، مفضلة الدنيا على الآخرة.

امرأة أخرى جاءت تحت نبي من أنبياء الله وهي امرأة لوط، لم نعرف اسمها – وكذا أسماء الكثيرات مجهولات حتى عهد بني إسرائيل على الأكثر، وكان لوط مزامنًا في ظهوره لأبي الأنبياء إبراهيم، وكان قومه يشتهرون بالفسوق وإتيان الرجال نكاحًا دون النساء، فهم لا ريب ينكحون النساء، لكن نكاحهم إياهن كان لسبب النسل وليس شهوة، أما نكاح الرجال بعضهم البعض فهذا ما كان يروق لهم، فضلاً عن بعض الخصال الأخرى التي تتنافى ومكارم الأخلاق.

والمقطوع به في هذا الصدد أن لوطًا كان يدعو قومه إلى مكارم الأخلاق، ونبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لكنه فشل في مسعاه كل الفشل، حتى إنه لم يستطع أن يُخرج زوجه من عداد الكافرين، وابنتاه اللتان حكت لنا التوراة عنهما أنهما أسكرتا أباهما وتناكحتا لئلا ينقطع نسله، هما بحسب هذا الزعم قد برهنتا على فشله في نبوته، ولئن كانت هذه الرواية عنه في سفر التكوين مكذوبة لدينا ، فهي على الأقل لم تكن مكذوبة ولا بعيدة الاحتمال عند واضعيها في التوراة، متجرئًا على نبي من أنبياء الله، نصت التوراة نفسها على نبوته، ولئن

كانتا قد فعلتا ذلك بطريق سكره، فليس له من الفضل حتى أن تتم نجاته دون أهله.

أما امرأته تلك، فليس عندنا في أي مصدر من المصادر ما يؤكد لنا ما كانت عليه من غي، وهل كانت تستحل أفعالهم، أم أنها – كإياهم – كانت ترى في السحاق أمرًا طبيعيًّا، لعل ذلك ما سوَّل لكاتب التوراة أن يورد عن بناتها تلك الفواحش، ولقد عُلِّمنا من غير ما مصدر أن البنت إن شابهت أمها فلا عدوان عليها.

لكن إن كان لوط لم يفلح في إقصاء أهله عن الفاحشة ولا قومه، ولا أحدًا منهم أبدًا، فأي نبوة وأي فضل كان له، يروى أن قد قيل له أسر بأهلك من قطع الليل وأخرج من القرية الظالم أهلها.

ولعمري إن كان الأنبياء قد قُدِّر لهم أن يخرجوا في أقوام ليس فيها عاقل واحد، وأنه لا يُرسل الرسول حتى يطلخم على القوم الليل البهيم من الشرك، وسوء العادات، وفجور العبادات، فإن مهمته إليهم لتكون شاقة وعظيمة، ولا يكاد يُكتب لها النجاح ما لم تسانده قوى أخرى خلا الغيب، وأهم تلك القوى مطلقًا هي أهله أي زوجه، فما مدعاة امرأة لوط ألا تقف بجواره وتسانده، وتعضده، وتواجه معه ذلك اليم من الموج الهادر؟

أتكون مثل امرأة نوح أرادت أن تنحاز إلى جانب القوة والسيطرة؟ أم أن ظروف عصرها تتباين والرغبات هنا لا تكاد تتطابق؟ ألم يكن لوط الرجل الذى تتمناه؟

إن الأنبياء – بفضل الله ومنِّه – معصومون – ذلك لا ريب معناه أن لوطًا لم يكن يأتي الفواحش من قبل، ثم تزوجها وأنسل منها، ثم هداه الله إليه وهجر ما هم عليه، فأنكرت عليه ذلك، ورأت فيه خارجًا عن قومها كافرًا بعاداتهم، فيكون لها الحق في البقاء على غيها تجاه إصراره غير المعهود على نبذ خطاياهم!

وقد يذهب بعض الثَّوارتيين إلى مثل هذا، خاصة أنهم لا يكادون يؤمنون بالعصمة المطلقة للأنبياء، فهذا أبوهم آدم يخطئ، وذلك أبو الأنبياء إبراهيم يكذب. وهذا هو موسى نفسه حامل التوراة، ومنقذ بني إسرائيل من فرعون يقتل النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بالحق وهو قد قتلها بلا حق.

ثم إنهم ألصقوا للوط الزنا ببناته، من بعد أن نجا بهما من الحريق، فلِمَ لا يكون في أول منحاه من الحياة قد سار على هدى قومه ثم هداه الله، كما هدى موسى؟!

ولئن كان ذاك الزعم صواب، فإن المرأة هنا لم تقترف جريرة عظيمة في حق لوط ولا في حق النبوة، بل هي صارت خلف العرف والعادة.

إلا أن ذلك الصرح كله من تلك الزعومات يتهاوى إذا ما علمنا أن الإنسان لم يُجبل على المعاصي، وأن الشيطان – وإن كان قد توعد بإغواء الإنسانية كلها – فإنه هو نفسه قد استثنى منهم العباد المخلصين. (انظر الحجر، سورة من سور القرآن)

وقد طال الظن بالإنسانية أن أولئك المخلصين هم الأولياء والأتقياء والقديسين، لكن أفلا يعلو النبيون كل النبيين عن كل أولئك درجة؟ هم إذن لا ريب من استثناء الشيطان وليس له عليهم من سلطان!

ولوط بنص الكتب المقدسة جميعًا هو من الأنبياء، إذن فقد عصمه الله من مشاركة الجماعة في آثامهم، ولكن يحتج علينا البعض ويقول: كيف تزوج إذن بامرأة هي من عداد الغاوين؟

نقول: إنه فعل كما فعل سلفه الأعظم نوح، ولم يكن في ذلك بدعًا من الأنبياء، وأن المرأة كأصل خلقتها وعادتها تنحاز إلى القوة، وتحب الجبروت والسيطرة وقد تكون زوجة في بداية

عمرها تحب أن تسود ، فلتكن – إذن مع الجماعة ، والظاهر لنا أن لوطًا كان منعزلاً لا يقرب الجماعة كثيرًا ، ولما جاءته الملائكة لإهلاكهم همَّ قومه بإتيانهم، وقال لوط: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، وقد أكد الإسلاميون أن المقصود ببناته هنا هن بنات قومه ، لأن النبي يكون أبًا للمؤمنين، كما أن نساءه يكن أمهاتهم، وقد يحتج البعض فيقول: النبي أبو المؤمنين وكذا زوجاته أمهاتهم، فما بالنا بالمشركين؟ لكنا نقول: إن النبي يحرص على هداية المشركين والكافرين، فهو ينتظر دخولهم في حظيرة الإيمان، فلا مناص حينئذ من أبوته لهم. ولئن كانت نهاية امرأته حريقًا ونهايته زنا فلبئس النهايات، وإن كنا مع شطرها الأول مؤيدين ومع الآخر رافضين.

الفصل الثاني

زوجات إبراهيم

إبراهيم قد سعى للهداية بقدر ما سعت إليه، ولا ريب أنه قد رُزق عقلاً راجحًا ووجدانًا ثاقبًا، وفهمًا خاصًا به، جعل لا يقف بهذه الإمكانيات الهائلة عند حدود الكرة الأرضية، بل تطلع إلى السماء، والنجم والقمر والشمس، وغير ذلك، والتمس الألوهية غاية ما التمس من القوى الكامنة خلف هذه الأشياء القوية المسيطرة، حتى إنه قد نسب الربوبية للشمس لكونها أكبر من غيرها، فالكبير عنده هو القوي والقوي هو الرب.

لكن الله شاء له هذا التخطيط، وادعى الفلاسفة من بعد أن مثل هذا الشك هو الذي يقود إلى الإيمان المطلق، ولو لم يكن ذلك كذلك لكان حال إبراهيم مع ربه عجبًا.

ثم هداه الله إليه، وهو يعلم أن هناك إله لا بد وأن يهديه أو سيصبح من الجاهلين، وهذا يؤكد قولنا السالف بمعرفة الإنسان – كل إنسان – بوجود إله خالق بعيدًا عن نظم الكنهة لأنواع الآلهة.

عُلّم عنه أنه كان ابنًا لأب يصنع الآلهة – يا عجبًا – من الحجارة، وأنه كان من العبرانيين، وقيل اسم أبيه أزر أو تارح أو غير ذلك، وملك قومه سمي النمرود.

وأورد القرآن خبرًا عن إبراهيم والنمرود مفاده احتجاج إبراهيم

عليه بأن ربه يحيي ويميت فقال الملك: أنا أحيي وأميت. فقال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت النمرود. (سورة البقرة ٢٥٨)

ونظن أنه انتقل من الحجم البشري إلى الحجم الكوني في المحاورة لأنه يعلم – أيام أن كان يشك – أن الشمس أكبر من البشر، وأنه كاد يخضع لها عابدًا يومًا ما. فالقوة عنده دومًا تمثل القهر.

ألقي به في حطبهم، حتى إن المرأة يكون عليها نذرًا فتقي به بجمعها للحطب إعدادًا للحريق، وإن الأثرياء كانوا يستأجرون الرجال لجمع الحطب لإحراق إبراهيم، وإني أقف من هؤلاء – اليوم – موقفًا عجبًا، ولكأنهم يشبهون عندي في جنونهم هذا بأهل مدينة يزيدون عن عشرة آلاف مقاتل خرجوا بعشرة آلاف سيف لضرب عنق واحدة أفلا يكفيهم سيفًا واحدًا؟

أفلا يكفي مقدار حجرة عادية في بئر ما لإحراق إبراهيم؟ إذن فإنما هي البشرية في مرحلة لا يكون فيها وسط الأمة الكاملة سوى عاقل واحد، وهذا العاقل تجتمع الأمة على حرقه.

قال إبراهيم: كانت أجمل الأيام تلك التي قضيتها في النيران.

وقيل قد قضاها بصحبة الملائكة، وقيل بل قضاها في الجنة، وقال الإسلاميون، جعلت النيران بردًا وسلامًا بأمرٍ من ربها، حتى يكون ذلك هو الإعجاز والتحدي، وأوقفت العناية الإلهية النيران عن خاصيتها الأم وهي الإحراق، ولكن جسد إبراهيم لم يحرق، وقيل اخترعوا المنجنيق لسبب قذف إبراهيم في جوف النيران، إذ أنهم قد تخبطوا في كيفية إلقائه في النيران.

لكن جسد إبراهيم لم يحترق، وقيل عندما خرج من النيران سالمًا اتبعه القليل من القوم.

ولو كان فيهم عاقلاً سواه لكان النمرود الذى يمتلكهم أو يملك عليهم، لكنًا لم يتواتر عندنا أن إبراهيم كانت له أمة تحيا بهديه، وتنتظر إرشاداته الإيمانية. لكأننا نخال صحفه التي قيل عنها القليل إنها مأثورات عنه وليست مما كتبه بيده، ثم طرحت المؤرخات والمقدسات هذه الفترة كلها، ونحت إلى حالته الشخصية، كرجل فرد وزوجه ساراى التي صارت سارة فيما بعد، بحسب زعم التوراة، كما كان اسمه إبراهام ثم صار إبراهيم.

وسارة هي امرأة عاقر، وهو رجل غير منجب إلى هذا الحين، وكأن إبراهيم لم يدخل بامرأة سواها، لكنها كانت تمتلك ضده شخصية عنيفة ليس من المستهان به أن يخالفها في شيء ويدل على ذلك طباع أولاد اسحاق ابنها.

وقيل إنها كانت أخته من الأم دون الأب، وفي شريعة العبرانيين يجوز له أن يتزوجها، كما كان قابيل وهابيل يتزوجان أختيهما.

وإبراهيم كابن أخيه لوط – كما قيل – لم يكن له قوم يأتمرون بأوامره الدينية، فلربما قيل عنه إنه كان أمة وحده. تعظيمًا له، ودرءًا لتوجيه النقد لدعوته، وإبراهيم كالأنبياء جميعًا كما ألمحنا في غير ما مصدر لم يكن لهم من التشريعات سوى الدعوة إلى الوحدانية وإفراد الله وحده بالعبودية، وبعض مكارم الأخلاق، ولربما زاد عليهم موسى بعض التشريعات، لكنها لم تتجاوز زمان قومه ومكانهم ولا تكاد تصلح لسواهم إلا ما كان من الوصايا العشر، أما خاتمهم فقوَّم كل ما نقص لهم وأكد لهم الفلاح بمجيئه يشملهم ويؤمهم ويهيمن على ما جاءوا به، بل يكاد يكون هو منقذهم يوم الفزع.

ولربما كان وصف إبراهيم بأنه أمة وحده هي الدعوة الأولى لرهبانية العبادة مع الله، ولربما وجد البعض في ذلك الصيغة التي

يكيِّف بها قوله، ليت الذي بيني وبينك عامر، والذى بيني وبين العالمين خراب.

ما هكذا جاء الرسل.

تزوج سارة ولما انقضت مدة طويلة لم ينجب منها، هاجر لمصر، وهجرته غير مقرونة بهجرة موسى ومحمد، فموسى هاجر بقومه (أجسادهم) ومحمد هاجر بإيمانه ويمؤمنين، أما هو فهاجر بنفسه وعقيدته وزوجه بل ربما شابهها بعض الشيء هجرة المسيح إلى مصر وأمه وخاله يوسف النجار.

وزعموا أن مصر بها ملك يأخذ كل امرأة حلوة تروق في عينيه، وكأن الملك يرى كل النساء — لذا فإنه أخبره بأنها أخته، وليست زوجه، ليتق ذلك. ولست أدري أيهما أكثر حرمة عند الملك لئلا ينكحها أن تكون زوجة فيحتاج الأمر لتطليقها أم تكون أخته فالأمر هين. واحتج المدافعون عن تاريخ وسير الأنبياء بأن إبراهيم لم يكذب وتأولوا قوله بأن كل المؤمنين أخوة، وهما مؤمنان فلا كذب هنا، ولكن الخط غير مستقيم.

أصبحت لإبراهيم مكانة عظيمة في مصر، ولسنا نظنها دينية.

فهو الذي هجر قومه لم يكن له أن يُغيِّر دين قوم آخرين. وباتت لسارة جوارٍ منهن جارية مصرية اسمها هاجر فبعد تفكير وتردد طويل، دفعت سارة بهاجر إلى إبراهيم ينكحها علّها تنجب له، ميراثًا للنبوة، وإبراهيم يحتاج الولد ليرث النبوة، وربما اجتاحته هموم الأبوة بجانب النبوة.

فأنجبت هاجر إسماعيل.

وهنا تتبدى ملامح المرأة الحقيقية، ولكأن سارة اعتبرت نفسها حواء وإبراهيم آدمها، فلا امرأة أخرى غيرها، ولعله اصطلح على

أن يتزوج الرجل بالأمة التي تتجب له، ويكون لها نفس حقوق الزوجة، ونقصت سارة عن هاجر في بعض الميزات ما لم يكن أعظمها على الإطلاق فأمرته – في ثورة عارمة – أن تفارق هاجر ديارهما، بل يهاجر معها ووليدها، وقيل من غير ما مصدر أنها لم تكن تتحمل سماع صوته يبكي، وأن قلبها كان ينفطر إذا رأت هاجر وهي تهدهده.

لكن ألم يكن لهاجر أن تحتج لأمومتها، ظننا أنها قهرت بشخصية سارة، وذلك القهر الذي لم يقاومه إبراهيم ولم يعمل على إزالته من لدنها.

فلا ريب أن هاجر كانت أقل وضعًا وأحقر شأنًا من سارة عند إبراهيم والمجتمع كافة، وهي تعلم أنها أقل منها حقيقة، قبل أن تتزوج إبراهيم.

فهي جارية سارة أي خادمتها، وقيل إن الملك قد وهبها إياها، عندما أراد أن ينكحها، فلما رأى جمالها وحسنها تعجب وزاد إقبالاً عليها، ولكنه ما مدَّ إليها يده حتى يبست، فلما أخذها بعيدًا، عادت إليها الروح، ولما يتقدم إليها تُشل قدماه، ولما يعود للوراء تعود قدماه للحياة، فعلم أنها معصومة ومحفوظة، فلما علم حقيقة علاقتها بإبراهيم تركها، وقال: إن هذا الوجه حري ألا يخدم نفسه، فوهب لها هاجر.

تروي لنا الكتب كافة أن هاجر سارت وإسماعيل مع إبراهيم إلى مكان مهجور عُمِّر فيما بعد، وسمي مكة ولعمري إن كان قد قال لهاجر إن الله قد أمرني بهذا، ثم توجه بالدعاء لله أن يحفظهما ويرعاهما، فإن سارة كانت على غير علم بما ينتظرها بل كانت تدفع بهما إلى التهلكة.

لكن ماذا كان يدور بَخُلد سارة في ذلك الحين؟ دعنا ندخل إليها، نسبر أغوارها، تلك المرأة القوية القاسية عليها الحياة، والقاسية على الحياة.

لكأنها حال عقمها رأت أن يكون لزوجها ذرية، وإن لم تكن منها – في لحظة إشفاق عليه – ربما في لحظة إنسانية عارمة، ربما في لحظات التاريخ الآثرة رأت ذلك، بل ربما حسبت للمجد التاريخي لزوجها حسابه، بل ربما تكون آمنت بدعوته وتريد له ذرية تؤازره عساه ينجح فيها بتعضيده، مبعدة نفسها عن هذا الخلود وذلك المجد الذي لن تنجح في أن تبنيه.

لكن مهلاً... إنها لم تختر له إلا هاجر المصرية، وقيل إن هاجر جارية ليست تمتلك من أسباب القوة والسيطرة بعض ما تملك سارة، بل لن تتطاول إلى مرتبتها أبدًا، وإن أنجبت.

لا بد وأن سارة قد أحكمت التدبير جيدًا لهذه الزيجة واختارت التوقيت المناسب تمامًا لإتمامها، حتى تكون هي الأعلى في بيته رغم أنها ليست أمًّا لأولاده.

استطاع إبراهيم أن يفارق ولده الذي تمناه ربما بعد انقطاع الأمل فيه نزولاً على رغبة سارة ولم يستطع معارضتها ولا مخالفتها.

نكاد نلمح في عبارات هاجر القليلة له وهي تستغيث ألا يهجرهما. نلمح أنها وابنها قوم غيره، ولكنها لم ترتكن يومًا إلى دفء صدره ولم ترتوي من ماء حياته، ولم تساكنه، وكأن قطعة اللحم هذه التي تبكي وتتضرع ليست له، ولا تخصه، رغم أنه أبو الأنبياء كما يقال، لماذا تركها؟!

قيل ليعود لزوجه سارة، فأي أمر هذا الذي كان من الله؟ تضاربت هنا المرويات.

قال البعض إنه لما تكون رغبة المرأة قوية عنيفة مسيطرة لمثل هذا الحد سننسب الفعل الذي تأمر به لغير أمرها، حتى تظهر رجولة الرجال في مكانها، فإن لم تستطع الرجال تبرير أوامرها وتقليدها التمسوا في القدر المعاذير فقالوا، بل القدر شاء ذلك آنفين أن يذكروا أن هنا هو حكم المرأة عليهم ولا حيلة لهم أمام النساء!

قالت هاجر له وهو ينظر إليها مودعًا بهذا الوادي القفر: أألله أمرك بهذا؟

أجاب: نعم. (انظر سورة إبراهيم)

وكأنها توافق هوى غريبًا تقول: إذن فلن يضيعنا الله. لكنًا نتساءل لماذا تتساءل هاجر هنا؟

ألم تكن تعلم إلى أي مكان ستهاجر بعيدًا عن سارة؟ ألم يخبرها بأن الله هو الذي أمره بهذا طوال الرحلة وهي تستغرق أيامًا إن لم نقل شهورًا؟

المهم أن هاجر وكأنها تكاد ترى الموت – كالمحتضر – تلتمس القرب من رحاب الله.

ولكأنها تقول لإبراهيم! إن نحن نموت فهل الله أمرك بقتلنا؟ فقال لها: نعم. فترد: إذن لن نضيع، طالما هو الذي دعانا لرحابه فلربما عنده جنة توازي في نعيمها مثل هذا القفر حسب تخيلها لحظتئذ.

فهاجر أيضًا ترغب أن تتحرف بهجرتها ووليدها ضد رغبة سارة والعروج بها إلى أمر الله. وهذا يوحي بمدى فهم المرأة للمرأة.

إلا أن إبراهيم ليكاد يُحَيَّر بين رغبات امرأة لا تُقهر إرادتها – خاصة مع عجزها – وأخرى ظاعنة لأوامره.

نعود إلى سارة التي لم تخبرنا المرويات لحظة أمرها برحيل هاجر ووليدها منه إلى هذا الموت، أكانت في مصر؟ فإن كان كذلك،

أفلا يذكرها هواء مصر وغيماتها ونيلها وترابها ونباتها وحيوانها وشمسها وبحرها وظلها وحرها وعذوبة مياهها وأنفاس الناس فيها بهاجر وابنها؟

فإن كان ذلك كذلك ففيمَ البقاء على هذا الحال وهي التي كلما نظرت في المرآة وجدت امرأةً عاقرًا، ودت لو تهرب منها ولو إلى مفازة.

قال البعض إن سارة أمرت حقًا بإخلاء وجه زوجها لها دون هاجر، بل قالوا أيضًا: إنها أمرته بتطليقها لكنه آثر آخر الأمر تطليقها فحسب وهي (سارة) لم تعلم فيما بعد أن الله أوحى إلى إبراهيم أن يذهب بهاجر إلى ذلك البلقع.

وقيل إنه آنس منها (هاجر) تسليمًا مطلقًا حين قالت: إذن فلن يضيعنا. هنا توجه إلى ربه يستنزل رحماته عليهما.

ولكنهم قالوا إن الماء لما يتفجّر عند قدمي إسماعيل رأته الطير، فاهتدى الناس بالطير وسكنوا إلى جوار الماء، أظن أن مثل هذه الرحلة تحتاج إلى عشرات ما لم تكن مئات السنين، حين ينتقل أقوام من ديارهم إلى مكان به بعض الطير تحوم حول ماء.

ثم إنهم فعلوا ذلك وجدوا - فحسب - امرأةً ورضيعها يملكان هذا الماء، لِمَ لم يقتلاهما ليمتلكوا هم الماء دونهما؟

قالوا غير ذلك، وربما عللوا نفي هذا بعناية الله، وأن جرهم لم يفعل، وكأنه حُبي رحمة عليهما فوق ما لإبراهيم، وربما احتج البعض بأن علاقات الأنبياء بالله غير مكشوفة، وفيها دومًا ما هو مطوي، نظنه عاد إليها بأرضه الأولى، وإلا فأي تقدم فيها يجلبه إليها من جديد؟

لم يستقر قرارها ، ولا استقرت أركان فؤاد إبراهيم، هي حياة إلى الشقاء أقرب إلا أن إبراهيم كان في صمت، فهي امرأة تود لو تهجر جلدها ، وقد هزمتها التجربة فقست عليها حتى القتل وما زالت تحيا ، وتجربتها في المنفى شبحها يطاردها كلما نظرت لزوجها رأت حنينًا عليه لرؤية أهل المنفى، فهم بعضه الحاضر وكله المستقبل.

يطاردها عقمها وزوجها وتجاربها تقسو وتقسو على كل شيء، فلربما تدخلت السماء ساعتئذٍ لإصلاحها الذي يتأتى به إصلاح حال إبراهيم.

لكأنها لحظة تبشيرها بالولد في حلم طالما حلمت به فإذا إياه واقع لا ريب.

صكت وجهًا وقالت: عجوز عقيم.

أنجبت اسحاق، وقيل إنه يشبه الضحاك من ضحكها وفرحها به واستبشارها بولادته، فلا ريب أن حياتها تغيرت تمامًا ، لكأنها تشبه حياة حواء قبل دخول الحية إلى الجنة ، ونصحها إياها.

لكن التاريخ يأنف أن يقول لنا إن سارة بدأت تكفّر عن نفيها السابق لهاجر بعد أن باتت تمثل كفأً لهاجر، وتطلب إليه أن يعود بهما.

كلا... إنها المرأة.

هاجر فتاة مصرية، والمصريون قوم يحكمهم إله من فوق العرش، يحكمهم بواسطة الكهنة الذين يستزلون الشعب لرغبات الملك الإله الفرعون ونهب خيراتهم ويلقنون النشء دومًا ، بإتقان الخضوع التام لأوامر الحكام، وأسهل ما يمكن من شيء قتل إنسان تلبية لأمر حاكم إقليم صغير، بل قد تضيع حياة الألوف منهم نزولاً على نزوة الفرعون والكهنة يباركون ذلك كله والشعب يطيع.

في مثل هذا الجو نشأت هاجر، فلما أن تصير أرضًا طيبة لرجل مثل إبراهيم، فهذا ما لم تطمع إليه، ولن يمكننا بحال من الأحوال أبدًا، أن نظن امرأة كهاجر أن تجابه سارة في أي شيء، ففي هذه الظروف حياة ألف كهاجر لا تعدل ألمًا بسيطًا عند سارة.

فلا هي ضرتها كما نفهم من كلمة ضرة ولا منافستها بل هي أقل شأنًا من هذا كله، ولئن أنجبت لإبراهيم ولدًا، فلم تزد عن كونها أرضًا إن أخرجت البساتين والفواكه فلا تعيِّر بها فقراء الأرض.

ولما أن تُنفى إلى مكان غير آمن فلا حيلة لها إلا اللجوء إلى الله، وكانت دعوة إبراهيم لها غاية ما تتمنى من أمنيات.

وهدتها فطرتها إلى الدفاع عن حياة ابنها فتهرول خلف الماء طلبًا للنجاة والاستقرار، حتى تقول له من عند قدميه: زمي، زمي، زمي، وترتوي وتدر لبنًا يحميه من الهلاك، ويكون سعيها بين الجبال شعيرة يأتي المليارات من الإنسانية من بعد يعظمونها أكبر التعظيم ويصير ذلك الجري أهم أركان فريضة كبرى في آخر ديانات السماء، ويكون ماء زمزم لما شُرب له.

ثم تطوي الصحف الأخبار الخاصة بأبناء إبراهيم ولا نرى سوى الذبيح وتغيير عتبات إسماعيل أي زوجاته حتى يثبت إحداهن التي لا تشكو ضيق العيش وسوء الحال، وتفرق أبناء إبراهيم، وبناء الكعبة ببكة ودعاءهما، ثم لا شيء سوى توارث النبوات في ذرية إسرائيل ولد اسحاق دون عيسو، وتتقطع أخبار سارة وهاجر إلا لمن أراد أن يحيي ليلة بتلاوة ما روي عنهما في الكتب المقدسة.

فهل استراح إبراهيم في دعوته لوحدانية الله بسارة وهل كانت المرأة التي لا تشغلها همومها الغريزية أو الجنسية أو الاجتماعية عن هموم دعوة زوجها؟!!

نظن أن النفي يجاور الإجابة!

الفصل الثالث

راحيل

تذكر الكتب المقدسة حديثًا مطولاً – بعض الشيء – عن اسحاق وولديه يعقوب وعيسو، وكيفية إعطاء البركة ليعقوب دون عيسو، بتدخل من الأم رفقة لصالح ولدها يعقوب، وهروب يعقوب عند أخواله حتى تتم المصالحة مع عيسو!

وقد قالت بعض الإسرائيليات أن يعقوب كانت عنده النبوة، والملك في عيسو لأن الأخير كان يأتي النساء جهرة دون استتار.

ولسنا ندرك مدى صحة ذلك كله، إلا أن يعقوب عمل – كموسى فيما بعد – أجيرًا عند خاله في مرعاه للغنم والإبل نظير أن يتزوج براحيل.

والحق إن اسم راحيل لاسم جميل يحتفظ لنفسه بخصوصية خاصة وسط أسماء أعلام النساء.

قالوا إن يعقوب لما أن رأى راحيل أحسَّ إحساسًا جارفًا يعتمل في بواطن قلبه، وأن حنايا صدره كانت تضطرب إن يراها.

وأنه خطبها من أبيها وأن أباها لما رأى شدة لهفته عليها وولعه بها لم يشأ أن يصده عن ذلك إلا أنه اشترط لمهرها أن يعمل عندها أي عنده.

وقيل إن كتب التاريخ تحوي ما يفيد أن البشرية قد مرت في بعض أطوارها بهذا النظام من التزاوج أي ينتقل الرجل ليحيا مع

زوجه وسط عشيرتها ويهجر عشيرته، وأن الرجل يندمج وسطهم، عكس ما هو مألوف اليوم.

واشتهرت تلك المنطقة التي عاش فيها يعقوب بهذا النظام، ولكن للأسف كان لراحيل تلك الفاتنة كما يصورونها أخت دُعِّيت ليئة. وكانت هي الكبرى فلما انتهى يعقوب من أداء مهر راحيل لأبيها أن يستتجزه وعده، فقال له والدها: إن راحيل هي الصغرى، وما أراني أنكح إليك الصغرى قبل الكبرى، فضم إليك ليئة قبلاً.

ولما خشى يعقوب ألا تنكح ليئة - ربما لسوء خلقها، وتواضع حسنها وتراجع جمالها - تقدم هو وتزوجها على أن شرعة القوم كانت تسمح له بالزواج من أختها في الوقت نفسه، ولسنا ندري تحديدًا أهذه الشريعة التي كانوا يسيرون عليها ويعملون وفقًا لمقتضاها ومبادئها كانت سماوية أم وضعية، ولكن يغلب الظن نظرًا لنتائجها أنها كانت فاسدة فلنستبعد أنها سماوية.

عاد يعقوب ليعمل أجيرًا مرة أخرى ليفي بمهر راحيل إلا أن خاله هذه المرة أقطعه قطيعًا يعمل فيه كمالٍ خاص له، فكان من ذلك العجب العجيب، إذ أن ماشيته كانت تتناسل بشكل أفضل من غيرها، حتى إن الرجل ليغار لذلك، ويستولي على ماشيته مرة ومرات، وتفيض في ذلك بعض الكتابات التي تريد أن تجعل البركة والنماء في يد يعقوب، وأنه ما إن خُص بشيء يملكه إلا ونما وازدهر فوق ما كانوا يظنون، وقيل إن سبب ذلك هو البركة التي وهبها إياه أبوه قبل موته، وقيل بل لأنه كان نبيًّا والأنبياء تجري بين أيديهم البركات، بل لأن ذلك كله كان لراحيل وكان لها من البركة ما جعل ذلك كله يحدث، حتى إنه كان يسير إليها ليلاً كثيرًا فأصبح يعقوب يدعى إسرائيل لكثرة سيره في الليل،

وهو أصلاً سمّى يعقوب لأنه ولد عقب عيسو (عيصو هكذا يكتبها البعض).

وقالوا إن ليئة لم تنجب له ذرية، فدفعت له بجاريتها فأنجبت اثنين ثم دفعت كذلك له راحيل بجارية راحيل، حتى اشتاق إسرائيل لأولادها وكأنه ما خلا رحم راحيل من دفع الأنبياء فلا أبناء له.

ثم أنجبت راحيل يوسف وبنيامين.

ولعمري إن المطلع على قصة إسرائيل ليرى إن كل ما زرعه إسرائيل حصده دون أن ينحرف حصاده عن زرعه شيئًا.

إن ليوسف عمة أرادت تربيته دون إخوته، ولما ألح عليها أبوه في استرداده جعلت شيئًا في جُعله حتى يُقال إنه سرق، وعقوبته أن يبقى في حوزتها وهذا اتهام يوسف بالسرقة كما أشارت لذلك بعض الكتب المقدسة تلميحًا. (سورة يوسف ٧٧)

وأولاد يعقوب يتباينون في الطباع والأخلاق، وهم لا يتفانون في حب أبيهم وخدمته، بل هم بنو أب واحد يحقدون على ذاك اليوسف صاحب الحظوة لدى أبيه دونهم، وابن راحيل، وكما كانت حلوة جميلة جاء يوسف يشاطر الدنيا بجمالها.

وقصة يوسف أشهر من أن تروى هنا، لكن نتوقف على ذلك العناد من قبل إخوته وهم بنو صلب أبيهم إسرائيل لقد أعاد إسرائيل العلاقات طيبة تارة أخرى مع أخيه عيسو، ويقال إنه أهداه الكثير والكثير جدًا من الأبقار والأغنام والماشية... إلخ.

وأبناؤه دفعهم صلب واحد، لكن أرحام شتى تلك الأرحام متقاربة فهي تحوي رحمين أخوين إلا أن ذلك من منذرات الهلاك.

فلقد قيل إن القرب بالنكاح يولد ضعف الجسد والعقل، وهذه

القصـة تضـيف أيضًـا ضـعف العقيـدة ، رأى الأخـوة قتـل يوسـف ، فقلوبهم الضعيفة لم تحتمل ذلك فأصل الميلاد ضعيف المنشأ للسبب الـذي ذكرنـاه لـذا فهـم وضـعوه فـي الجـب ثـم بـاعوه بـثمن زهيـد وكانوا فيه من الخاسرين.

ولو أن قواهم العصبية والنفسية تكافئ مرضهم وحقدهم على يوسف لما رأوا عن قتله بديلاً ، لكن يهمنا الآن أن نؤكد أن راحيل التى اشتركت مع ليئة فـي يعقـوب لم تكـن العلاقـات بينهمـا فـي وئام ومحبة ، بل الغيرة والحسد ، حتى ورث الأبناء عنها ذلك جميعه بعد ما أكسبوه ما للرجولة من هذا الأمر.

نعود مرة أخرى ونؤكد أن الرجال يضعون على الأحداث أي لـون يُبعـد الظـن عـن تـدبير المـرأة وأن البشـرية لـو تـدبرت كـل مصـائبها لكانت المرأة هي السبب الخفي والأظهر في الوقت نفسه.

فلو استطاعت ليئة قتل يوسف وبنيامين ابنـيّ راحيل لفعلت حتى يكـون أولادهـا هـم وارثـو مجـد أبيهم ، ولـذا لـمـا تقـدمت الحضـارة قليلاً ، رأينـا الملـوك والخلفـاء لا يتورعـون عـن قتـل أبنـائهم وإخـوتهم لأجل الملك والمجد والسلطان. (انظر أنباء الخلافة العباسية)

لكن ما عجزت عنه ليئة أرضعته أبناءها ، فقاموا ينفذون لها ما انطوت عليه نفسها.

ويعقوب إذ ذاك غارق في عدة قضايا هامة أهمها العودة لموطنه ، وما ينم ذلك عن خطورة بالغة ، بالتصادم مع عيسو ، وكذا مشغول بأموالـه ومشـغول بعبادتـه ، فكأنـه اعتمـد فـي تربيـة أولاده علـى أمهـاتهم فكـل أم أرضـعت أولادهـا مـا تشـاء ، ولسـنا نحسـب حـب إسـرائيل ليوسـف إلا بسـبب حبـه لراحيـل وقيـل إنـه أفـرط فـي ذلـك الحـب ، والغـيرة الـتي كانـت عنـد ليئـة توارثتهـا الأبنـاء وارتكبـوا بسـببها أخطـاءهم العظمـى ، ولم تـروي لنـا المرويـات كـثيرًا عـن

توجيهات يعقوب لأمته إن كانت له أمة، إلا أولاده، فهو قد حاول الاتجاه بهم إلى وحدانية الله.

ولعل يوسف وحده وهو في سجنه بدعوته إلى الله هو الدليل القوي على فعل يعقوب، ولولا ذلك ما كانت لحياة يعقوب الدينية تلك الهالة، ولولا أنه المنبت الأصيل وإليه ينتسب بنو إسرائيل كلهم.

إن حياة يعقوب كما تروي التوراة عشق ولهو أحب راحيل وكان يتقابل معها سرًا في خلوات عشق وهيام، لم يستطيع أن ينزع دابر الغيرة في نفوس زوجاته، ولعله بولعه براحيل قد زاد النيران أوارًا.

أفشل يعقوب في رعاية أسرته وبيته؟ فكيف به إذن لو أنه قد قاد أمة عظيمة، لكنه قد اضطربت الحياة به لفقده يوسف كما نعرف جميعًا.

وما امتلك وهو إسرائيل نفسه سوى الصبر يستعين به على تلك الملمات، أما المواجهة فلا سبيل إليها عنده، وذرية إسرائيل كلها لا تصلح استنادًا لذلك أن تقود البشرية، فلتتخلع منهم جميعًا إلا من يوسف، وليرثها أفرايم ومنسي.

الفصل الرابع

امرأة فرعون

أمر شائك جدًا، الحديث عن فرعون موسى الذي ذكرته الكتب المقدسة، واختلف بشأنه العلماء بشتى تخصصاتهم أي اختلاف، فمن قائل إنه رعمسيس الثاني، ومن قائل بل هو منفتاح، ومن قائل بل هو سنوسرت... إلخ، من ينسبه إلى عظماء الفراعين عليهم جميعًا ومن اتبع ملتهم لعنة الله وغضبه والملائكة والناس جميعًا.

ويسوق كل فريق أدلة يراها تؤكد زعمه ويراها الخصوم أباطيل تتهاوى أمام ما يُقدم هو من حجج دامغة وبراهين ساطعة.

ليكن من يكون من هؤلاء، أو غيرهم، فاسمه ليس مهمًا كوسمه ومسماه، هو حاكم لمصر كلها يستخدم سلطانه من شرعية ورثها عن الآباء، وقيل إن لفظة فرعون إنما تطلق على حاكم مصر أو القصر الملكي نفسه دون الالتفات إلى اسم الحاكم.

ولقد ظهر موسى في عهد هذا الحاكم الذي ألّهته الكهنة وسجدت له، والحق إن المتتبع للتاريخ الديني منذ عهد يوسف يجد أن الفراعين كانوا يملكون بعض الحق فيما ذهبوا إليه، فإن سنوات الجدب التي مرت بها البلاد جعلت يوسف يشتري من الناس حرياتهم للملك نظير إطعامهم، بل اشترى ذريتهم للملك وذريته.

ففرعون بحسب ما قسّم يوسف النبي يملك الناس، ودوابهم ونسائهم، فإن قتلهم، فإنما هو يتلف ماله وما دام يملكهم فهم

يعبدونه، فهو حقًا فيهم يحيي ويميت، ولما علا بنو إسرائيل في عهد يوسف وما تلاه في عهد الفرس الذين كانوا يحكمون البلاد، فإن المصريين رأوهم نذير شؤم فساموهم سوء العذاب ونكلوا بهم، وإلى مثل هذا كثيرًا تشير الكتب المقدسة أولها وآخرها بما لا يدع مجالاً للشك، وكذا تشير إلى ذلك كتب التاريخ كلها.

وقالوا إن الكهنة أخبرت فرعون بأنه سيولد مولود يقوِّض عرشه وينهي ملكه.

فلو أنهم كانوا عاقلين وعَقِل بقية الناس معنى ذلك لما عبدوه، لماذا؟

أولاً: لأن فرعون لا يعلم علم الكهنة هو إذن دونهم علمًا، فكيف يكون عليهم إلهًا؟ والإله يعلم دون علم أو تعلم.

ثانيًا: إنه رغم كونه ملكًا - وإلهًا - في هذه اللحظة الزمنية إلا أن رحمًا ما يحمل جنينًا - ما زال جنينًا - سيقوِّض هذا الجنين هذا الملك، إذن فهذا الملك كله أضعف من ضربات القدر الجنينية لا ريب.

ثالثًا: قالت الكهنة: سيولد ويكبر ويشب ويقوِّض حكمك أي يحاربك، فكيف بفرعون يقتل من يولد؟ هو إنما يحارب قوى خفية لكنه يذعن لقوتها.

نادى فرعون في الناس إنه إلههم، وطالبهم بعبادته، فصدعوا بأمره.

إلا زوجه لم تذعن له في ذلك، فيا ترى لماذا؟ قالوا إن اسمها أسيا بنت مزاحم، وزاد البعض بأنها أسيا بنت مزاحم بن الوليد بن الريان، وكأنها ولدت في بيئة عربية لتحمل هذه الأسماء!

ونحن في هذه الدراسة لا نعوِّل كثيرًا على المكان ولا الزمان، فهي مطولة في مصادر غير مجهولة، وإنما نهتم بالعنصر البشري

الذي نتصدى له، ولا يهمنا البحث عن صحة النسب أو فساده، المهم أن هذه الشخصية، بالفعل شغلت مكانًا في التاريخ والحضارة، وتعد نموذجًا أنثويًّا.

وبالنسبة لامرأة فرعون فليس عندنا كثير من الأخبار عنها من أي مرجع حتى الكتب المقدسة كالقرآن أشار إلى حياتها من جانب واحد وهو كفرها بعبادة فرعون وإذعانها لعبادة الله، وامرأة فرعون من هذه الزاوية امرأة تبدو للنظرة الأولى العجلى امرأة تقية نقية، نأت بنفسها عن الكفر، واتجهت صوب طريق الإيمان لكن مهلاً، إن أسيا هذه أو امرأة فرعون التي مدحتها الكتب المقدسة، إنما كان مناط الامتداح كله لمجرد أنها كفرت بعبادة فرعون، وهي تساكنه قصره.

لكن تعالوا بنا إليها نضع المرآة أمامها وننظر فيها فماذا سوف يمكننا أن نرى؟

سنرى امرأة شابة قوية البنية كثيفة الشعر صلبة الرأي وعريكتها قوية، تقف شامخة بإيمانها، وشتى صنوف الجمال إزاءها تتراجع.

هي ملكة من ملكات البشرية المعدودات، وإن كانت ملكات البشرية يحيين في مملكة تضمهن فهي ولا ريب ملكة على هذه المملكة.

ما الذي يجعلها تكفر بعبادة فرعون؟

لتقف خلف مقصورتها وتنظر إليه والناس والكهنة والقادة والوزراء يسجدون بين يديه، ويؤتى بالرجل فيحيا بكلمة منه أو يموت بكلمة منه، والجيوش تُسيَّر بأمره، والجميع يسجد أمامه ويصدعون بأوامره.

لكن عندما يعود إليها ولا يكون سواهما، تعالوا بنا ندخل معها في حجرة نومها في لقاء يضمهما معًا، لا يخاتلنا شك أن فرعون كانت لديه المئات من المحظيات يستمتع بهن ويفرغ إليهن بشهواته، وينهم معهن بملذاته.

لكن الزوجة التي تحمل تاج المملكة ولها عليه من الحقوق ما لا مهرب منه، كما أنها كما وصفنا بديعة الجمال وبالغة في الفتنة مبلغًا يجذبه إليها جذبًا شديدًا. أرادها، فشردت عنه، خلع عن نفسه هندامه الإلهي الملكي، كما يزعم وتزعم الكهنة، ارتمى على سريره، ينتظرها، لم تأت، بل أطلت من شباك غرفة قصرها إلى النيل، ناداها! لم تجب! لا لأنها ابنة الملوك والفراعين، بل لأنها امرأة تجيء إلى الجنس وقتما تشاء وتُعرض عنه وقتما تشاء وهو رغم أنه الملك وأنه الفرعون، بل وأنه الإله، إلا أنه يلاطفها فلا تعيره الاهتمام اللازم بجلالته. تفكر إلى النيل وتقول: أإله بشهوات؟ ألا يحكم جسده وثوراته فكيف به يحكم العالمين؟ ثم ماذا؟ لا يستطيع إرغامها، فهي لن ترغم على الاستلقاء تحت جسده حال الجماع إلا بمحض إرادتها الحرة.

مشيئته الإلهية هذه التي يزعم لا تسري في جسدها لا تثير رعشة ولا قشعريرة ترتجف لها الأوصال أن همت بمخالفة المشيئة الإلهية بحضرته.

إنه بشر كالرجال كافة، يتسرى بالجواري ويتناكح إلى النساء، يتلذذ بالطعام، يشرب ويثمل من الخمر، ينام ويرقد، ويرتاح، ويتعب، يمرض، عاديات البشرية تسير عليه وعوارض الأيام.

هو في ديوانه الملكي فرعون، وفي معبده إله، أما هنا فهو رجل لا يزيد عن ذلك بل قد ينقص هنا ولا يسمو الفكر هكذا بكل محظياته، فكل الجواري يرتقي إلى خلدهن أنهن إنما يؤدين

واجب مقدس تجاه فرعون باستمتاعه بأجسادهن.

لهذا كله كفرت به إلهًا، وإن لم تكفر به زوجًا، هو في ملكه عرتيت يذبح لنبوءة، يستحي النساء ومحرمات بني إسرائيل، أما هي فتفكيرها في أمره، جرها للتفكير فيما عداه، واهتدت بأنه على ضلال ورأت أن للعالمين إلهًا غيره.

لكنَّا نعود لنسأل أي إله هذا؟ وعلى أي دين كانت تدين أسيا؟

لسنا نعتقد أن أسيا كانت تدين بدين بني إسرائيل ولا غيرهم.

فقط تدين لله مباشرة، دون وحي بل اهتداء بالفطرة – كما أسلفنا – ففرعون معوج وكل اعوجاج عن الاعوجاج استقامة. وهذا معنى الحنيفية.

فالبيئة من حولها منفرة إلا من الرجوع إلى الفطرة والتسليم لها، كما قلنا إن كل إنسان في الحياة لديه من الأسباب ما يؤكد له وجود الله، والإذعان لسلطانه، لكن الأمر هنا عند أسيا يزيد عن ذلك، فكما قالوا وبضدها تتميز الأشياء، فكما أن الجو المحيط بها كله ضباب وخانق فإنها تتوق نفسها إلى النسيم والكفر بما هي فيه هو الإيمان كله، وكما قال آخر الأنبياء إن أعظم الجهاد مقولة حق عند حاكم جائر.

فإنها خالفت، وأيًّا ما يكون منها من بعد مخالفتها تلك فإنه سُيقبل منها.

إن أسيا لم تزهد، لكنها أرادت إشباع نفس تواقة للحق، ونزعت روحها إلى الإشباع من الحياة والفردوس الدائم، فهي تطلب إلى الله أن يُنجيها من فرعون وعمله وكفره فهل تخشى بطشه، إن علم بكفرها؟ هل تخشى أن يعاملها مثل ما عامل بني إسرائيل؟

ليس هذا فحسب، بل هي لا تريد النجاة من فرعون، بل تريد

من ربها وهو رب العالمين أن يبني لها قصرًا في الجنة (وكأن الجنة بلا قصور فسيبنى مُستقبلاً) عوضًا عن قصرها المخنوق في رحاب فرعون بالكفر والعتو والفسوق فهي إنما تستبدل ربًا برب وقصرًا بقصر، لكن مع الفارق، فربها الدنيوي زيف وتضليل وقصرها هذا المنيف فاني، أما ربها في السماء فحق، وإحساسها لا يكذبها والقصر في جنته لا فناء يحوم حوله، فهي تبحث مع الشيطان عن الملك الذي لا يبلى، قد يكون حقًا يُراد به باطل، ما أوسع حيل الشيطان، وسيظل ما لأسيا هو الاعوجاج عن الاعوجاج الفرعوني.

الفصل الخامس

امرأة العزيز

يرتبط ذكر يوسف في ذهن الإسلاميين بحادثين عظيمين، الأول هو رؤياه واختطافه وبيعه عبدًا لعزيز مصر، والأخرى بجماله الذى فتن امرأة العزيز حتى راودته عن نفسه، فلما استعصم كان جزاؤه السجن وعذاب أليم، ثم مُكّن له في الأرض وصار أمينًا على الخزائن بسبب أمانته وحكمته وذلك كما يقول البعض في عهد الفرس الذين احتلوا مصر.

فمن هي امرأة العزيز هذه؟

علمنا من غير مصدر أن يوسف ابن يعقوب ابن اسحاق ابن إبراهيم، وهو كما قال عنه عمر بن الخطاب ابن الأكرمين حقا وأمه هي راحيل التي أحبها إسرائيل كثيرًا وأن شطر الحسن قد آل إليه.

أما هذه المرأة فإنها قد جاءها بعلها ذات يوم بطفل قد بيع عبدًا مع التجار، وقال لها: إكرمي مثوى هذا الطفل لعلنا نتخذه ولدًا أو لعله ينفعنا!

هكذا صورته عند الإسلاميين، ومصدرهم الوحيد لتلك المعارف هي القرآن الكريم الذي أفرد سورة كاملة آياتها مائة وإحدى عشرة آية تروي قصة يوسف هكذا.

والتوراتيون لا يتباينون كثيرًا عن ذلك إلا في تفصيلات لا

يذكرها القرآن، لأنه كما قلنا - يركز في القصص على مواطن العظة والاعتبار دون الملل والإسهاب.

وقالوا إن سبب نزول هذه السورة على (الرسول الخاتم) وحيًا هي أن حبرًا من أحبار اليهود سأله عن يوسف وما كان من أمره، فنزلت فآمن به ذلك الحبر.

وإنا لنتساءل ماذا كان موقف السماء ما لم يطلب ذلك الحبر من (الرسول الخاتم) هذا المطلب؟ أفلم تكن تتنزل تلك السورة ويخفى عن المسلمين وغيرهم قصة يوسف مع إخوته ومع امرأة العزيز، ومع السجناء، ومع المصريين الذين باعهم نظير القوت للحاكم الذي مكنه في الأرض بفضل تأويله للرؤيا التي رآها الملك، وليتحكم في قوت إخوته ويصير لهم سيدًا، كما جاء في بداية سورة يوسف في القرآن فسجد له راحيل ويعقوب وبقية الأسباط.

ولعلهم قالوا إن راحيل كانت قد ماتت قبل ذلك، وأن ليئة هي التي سجدت له مكان راحيل، واحتجوا بأن الخالة كالوالدة خاصة عند يعقوب.

لا تعنينا تلك الاختلافات، إنما نود البحث في موقف امرأة العزيز، هي امرأة لها غرائزها التي تشاركها فيها كافة النساء.

الكتب المقدسة تحكي وتروي إنها زوجة عزيز مصر الذي يشغل منصب كبير الشرطة أي وزير الأمن، هذا الرجل كان عنينًا أو قالوا مجبوبًا والمحصلة واحدة فسواء قُطع ذكره أو أنه لا ينتصب فالحال واحد وهو ألا قدرة له على الجماع معها، ولن نخوض طويلاً في عادات المصريين آنذاك، ولا نغوص خلف القائلين إنها من الفرس الذين حكموا مصر إبان تلك السنين وأن نظام الزواج كان له طبيعة خاصة تصرفها عن طلب الطلاق، فنحن سنتعامل مع القضية دون أن نضيف معلومات تخرج عما حوته

الكتب المقدسة حتى لا تُتهم بالاختلاق، ولا نزعم أن هناك مصادر أعظم قيمة من الكتب السماوية. وإن أُتهم بعضها بالتحريف والتقوُّل على الأنبياء.

دلت آيات القرآن على أن الرجل لا يجامع النساء (ذكر ذلك تلميحًا)، فبعد أن أقرت بذنبها أمر العزيز يوسف بالإعراض عن الخطيئة، وطالبها بالاستغفار، لا لأنها تريد النكاح، بل لأنها تريد الخيانة.

ولو أنه رجل مستقيم ويُعطيها حقها وخانته بل واعترفت إذن لقتلها وقتله لمجرد شكه، فما بالنا ولديه اليقين.

ذلك يؤدي بنا إلى صدق ما زعمناه أنه لا يجامع النساء.

لما حكت السورة القرآنية عن القصة بعد اشتهارها في المدينة تقوَّلت النسوة على امرأة العزيز وقلن إنها في ضلال مبين، إذ – في نظرهن – كيف تراود ربيبها؟

دعنا ندخل عقول تلك النسوة لنرى ما مدى تصورهن وكيف تأتي لهم استنكار ذلك منها برغم كونهن إناث مثلها؟

لقد نص القرآن على أن النسوة قلن إن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، وهن يرونها في ضلال عظيم.

ألم يتطرق إلى خَلَدهن أنها بريئة من تلك التهمة وهو الآثم، خاصة وأنها لم تعترف بعد، بل قد اتهمته بالتعدي على عرض سيده وطالبت بتعذيبه؟

لا.... ولن يتطرق مثل هذا الخاطر لدى امرأة في قضية بهذه الصورة المتهمة فيها امرأة أبدًا... أبدًا، فكل امرأة في نظر أختها آثمة حتى تتضح براءتها ببرهان لا يقبل الشك كاتضاح الشمس وسط النهار.

هُنّ كن يعرفن أن زوجها (العزيز) أعطاها غلامًا صغيرًا لتقوم على تربيته، هذا الصبي الصغير من شأنه أن ينمو ويكبر، وربما تكون قد أشرفت على غسله وهو صبي، ثم تنحت عن ذلك كبيرًا، ثم إنه يكاد يكون ابنها، أليست تتعهده بالرعاية كولدٍ كما أوصاها زوجها؟ وهي المحرومة من الأبناء ويُقال إن الأمومة غريزة تكاد تتوق إليها كافة النساء، وخاصة المحرومات منهن من الأبناء.

إنها لم تره وليدها، ولم تتحرك فيها عاطفة الأمومة نحوه فهل كان يوسف يوم راودته تلك المراودة المشهورة والتي من أجلها انتهى عهد كان ليوسف فيه عز ومكانة وأُدخل السجن، هل كان في بداية شبابه، أم أنها اصطبرت عليه طويلاً حتى صار رجلاً؟

ثم هل هي راودته مراودة واحدة فحسب هذه التي عنها يقولون؟ أم أنها مراودات ومراودات كثيرة ربما تكون نجحت في البعض وفشلت في النهاية أو العكس؟ إن القرآن لم يهتم بواقعة واحدة بل يختار وينتقي خاصة أنه في معرض الحديث القصصي!

قد تكون المراودات كلها فاشلة إلا أنها لم تكن تصل إلى مرحلة اليأس، ويدل على ذلك قول القرآن ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ولو مستقبلاً، إن الأمر الذي لا جدال فيه هو الوصول إلى مرادها هذا، ولو رهنت عمرها كله له، ونجحت فيه لكانت ترضى.

تعالوا نتصورها أثناء تطور رغبتها الجنسية إلى يوسف، وهو الذي قلنا إنها ربما تكون قد اطلعت عليه وعلى ذكورته صغيرًا، ثم تطلعت وتاقت إليه شابًا، ولا بد أن لم يكن طفرة.

لو أن هذه المرأة – التي لم يسميها القرآن – وقيل اسمها زليخا كانت في عوز جنسي بسبب ضعف زوجها، فإنا سوف نتساءل أكان ذلك العوز قديمًا أم كان ناشئًا؟

أي هل كان العزيز عاجزًا منذ دخول يوسف إلى بيته، أم أنه أصيب فيما بعد؟ ولقد تغيرت نظرتها ليوسف من بعد ما أصاب زوجها؟

لنا أن نفترض وأن نحلل فروضنا وافتراضاتنا، فلنفرض الأول هو الصحيح، فلو أنه كان - بحق - غير قادر منذ البداية، إذن فهي امرأة خئون، كان لها أن تلتمس الإمتاع والإشباع من غير زوجها، وبالطبع لن يكون هذا الغلام الذي دخل إليها بوصفه قد يكون ولدهما (ولعله عندما جاء به إليها قال نتخذه ولدًا، عساها تتلهى بالأمومة عن الجنس)

ثم إنها إن كانت هكذا، فإن الشيء الذي نفهمه من القصة كلها أن زليخا امرأة ككل النساء تخون في حالة العوز الجنسي، ولها عشاق كثيرون لم يفتضح أمرهم، لكن تطورت رغبتها في يوسف كلما زاد اكتمال شبابه، واتضحت معالم رجولته، يومًا بعد يوم.

إن يوسف لا بد لم يستنكر عليها أن تفعل ذلك (الزنا) ولسنا بصدد استبطاننا للإشارات الواردة لواقعته معها لنرى ما يدل على أنه استنكر ذلك منها، فحسب استنكر أن يخون رب البيت الذي أكرم مثواه، كما نصت على ذلك السورة في بدئها وذلك الموقف فيه تذكير به، كما أنه استنكر أن يكون من العصاة وهو من أولاد إسرائيل ووريثه، ولقد لُقِن الفهم والحكمة.

لكن يوسف إذ يُبرئ ساحته من تلك الفضيحة فإنه يذكر أنها راودته عن نفسه، والمستبطن لإشارات حديثه يجده يتحدث وكأنه يقول: هي امرأة داعرة - دون أن يذكر السبب تأدبًا مع العزيز - ولكن ما دام عُهرها يطأني فلأقل لكم، بل هي التي راودتني عن نفسي غلابًا!

إذن فإنها كامرأة عادية جداً ليس لها أية خصوصية وقعت بين شقي رحى!

الأول: فشل زوجها التام.

الثاني: جمال يوسف الوضاح.

لما سمعت زليخا بما تقوله النسوة، أرسلت إليهن ولعلها انتخبت منهن القليلات، فليس يمكنها ولا يمكننا أن نتصور أنها ترسل إلى كل النسوة اللاتي قد يتقولن عليها مثل هذه الأشياء.

ولا بد للمفكر أن يمعن في تلك النخبة المختارة من النساء، فهل كن من الصفوة الحاكمة أي من البيوتات الراقية، أم هن مجموعة منتقاة بحيطة وبحرص شديد من وسط نسوة داعرات فاحشات؟ نجيب بعد قليل!

المرأة تنتمي إلى بيت رجل مكين في القوم فبيده سلطان حاكم يخوّل إليه أن يسجن ويعذب بلا قيد أو شرط، أي بلا رجوع إلى المقاضاة أو تصعيد الحدث، إذن فهي تريد تبرئة ساحتها أمام النسوة اللاتى يكافئنها في المدينة.

هذا قد يعزز الاحتمال الأول بأنهن سيدات الطبقة الأولى، خاصة وأنهن قليلات الخروج من البيوت، ولعلهن لم يسمعن بيوسف ولا ملامح حسنه الفائق.

ثم إن المرأة كطبيعتها الأنثوية لا تكاد تغار إلا ممن يكافئنها.

لكن قد يدحض هذا الرأي – رغم طاقته الجبارة على الصمود أن نظن أن زليخا في الأساس داعرة منذ استجلاب يوسف إليها بوصف زوجها فاشلاً جنسياً منذ البداية.

ففي هذه اللحظة لن ترى في نفسها كفاءة لذوات البيوتات الرفيعة، هذه واحدة، والثانية وهي إشارة تكاد تكون متعددة جوانب

الإلماح في القرآن، إذ اللفظ القرآني يؤكد علمها بالأمر المتفشي بين النسوة، ثم إنها أعدّت للصفوة المختارة منهن متكئًا، فلو أن هذه النسوة من البيوتات الرفيعة لما ذكر القرآن مثل هذه الإلماحات، فليس يذكر – حسب العُرف والعادة – ما يكون ضروريًا عند استقدام العظماء في بيت عظيم، إذ ماذا نفهم من قولهم: إن الوزير قد أعدّ مكانًا لائقًا أو مبهرًا في استقبال وزير مناظر؟

هذا باطل، لأنه لكل مقام مقال، ولكلٍ درجة هو يصل إليها. أما ذكرالقرآن ذلك، فقد يكون توطئة لنخبة من النسوة هن أقل شأنًا من زليخا لهن الاهتمام الكافي، لكنها لما أعارتهن ذلك الاهتمام ذُكر.

إذ لا يمكن أن يُقال استقدم الوزير فلان مجموعة العاملين في شركاته في بيته الخاص، دون أن يُنوه بكيفية الاستقبال أو سببه، هنا يكون محلاً للذكر، لأنه ليس من عادة الوزير (أي وزير) استضافة مثل هؤلاء في بيته.

كما أن هناك ملمحًا أخر في نفس تلك الآيات وهو التعبير عن حديث النسوة بلفظة "قال" ويعلم غير إنسان أن القرآن الذي نزل على (الرسول الخاتم) إنما كان معجزًا في بلاغته، وما كانت تنقصه الاستقامة اللغوية، وما كان يأتيه الباطل سواء المعنوي أو الخارجي، والدلالة في اللغة العربية كقواعد تضبط بنيتها كما أكد علماء العربية الأفحاح أن الفصاحة تقتضي تأنيث الفعل حال كون الفاعل مؤنث حقيقي، فلم يشذ في تأكيد هذه القاعدة أحد، ولم نقع على مثيل هذا الشذوذ في غير تلك الآية، فهل يكون هذا اللفظ الذي جاء مذكرًا في موضع التأنيث عبثًا؟ حاشا وكلا.

ربما قال البعض هي اختصاصات القرآن التي لم تتكشف بعد، أو تشبه مفتتح أوائل بعض السور المبدوءة بالحروف المقطعة. (عددها

٢٩ سورة، والحروف المستخدمة ١٤حرفًا)

نريد الإلماح إلى نقطة هامة – قد يجانبها الصواب أو يجاورها – ولسنا نظن التجرؤ على القرآن بهذا.

إذ لو أننا سايرنا زعمنا الثاني بأن النسوة هن طبقة مختارة من الداعرات اللاتى استضافتهن زليخا، وهن اللاتي يصح منهن – تمشيًا مع طبيعة المرأة والعرف – أن يُكثرن من التقول في أمر كهذا.

كما أنه ربما طالب العزيز (وقيل اسمه قطفير، أو فوطيفير... إلخ) يوسف بإخفاء هذا الأمر كما طالب بالتوبة وعدم الرجوع إليه، فقد يُخفي يوسف حقًا، وقد يُخفى الأمر على البيوتات الكبرى، لكنه – قد – لا يخفى على تلك الحفنة من النسوة الداعرة، ولا تكاد تتقول النساء في المدينة إلا بالشائعات وأولاء هن مخرج الشائعات، والنسوة الداعرات يشتبهن أحيانًا بالرجال لكثرة مخالطتهن إياهم، ولكثرة تكشفهن عليهم. وقد لا يستعصي على مسمعها أن تُنادى كرجل، فلو كان هذا صحيحًا، فإن القرآن، بلفظ ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يخاطب تلك النخبة منهن دون صاحبات البيوت الرفيعة.

ثم إنّا لنريد أن نفهم معنى قول النسوة إن زليخا في ضلال مبين، أو هي خاطئة، هن قلن بنص القرآن ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾، ثم أضفن ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ثم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

هن قلن فتاها أي ولدها لأنه هكذا كان يُظن به، ثم هي التي تراوده عن نفسه، لأنه قد شغفها حبًّا، وتمكن الحب من قلبها ولامس شغافه، وإنها لا حيلة لها إذن وهذه هي حالها.

تلك الآية أشارت لكون النسوة من البيوت الراقية والعكس.

فلو أن الاستنكار كان لسبب أنها تراود فتاها وحسب فهن الرفيعات يستنكرن مخالفة العرف والعادة، بل والفطرة، أن تريد أن توقع بفتاها.

ولو أن الاستنكار بسبب شغفها حبًا وتم التجاوز أو تخطي كلمة فتاها فهن الساقطات يرين الحب من المرأة ضلالاً مبينًا.

وإنَّا لنذهب مع الآيات لنرى ما كان منها معهن بعد علمها بما يقولون، فهي كما قال بعض مفسري تلك السورة أعدت لهن متكئًا، وأتت كل واحدة منهن سكينًا ثم كانت قد خبأته، فأمرته أن يظهر، فلما رأينه، أي رأين حُسنه وجماله وانبهرن به قطعن أيديهن بالسكين وقالوا إنها أمرته أن يُقبل وأن يدبر أمامهن.

فهل تفعل امرأة العزيز ذلك إلا إزاء نسوة هن أدرى وأعلم بمواطن الجمال في الرجل، ولا بد أن لديهن خبرات تريد أن تُدحضها بتلك الخبرة الجديدة، هن لا ريب نسوة ساقطات؛ لأنهن أبدين تعجبهن فلقد استغرقهن جماله لحد أن قطعن أيديهن وهن لا يشعرن لشدة أخذهن بجماله. وقالوا إن (الرسول الخاتم) قال عن يوسف وأمه أنهما قد حظيا بثلث الحسن أو النصف أو الثلثين وللبشرية الباقي، ثم احتج آخرون بأن الحسن المقصود هنا حسن آدم أبو البشرية، قالوا إن (الرسول الخاتم) قد رأى يوسف في رحلة الإسراء بهذة الصورة الجميلة واحتج بها المفسرون.

قالت النسوة ما هذا بشرا!

فليس هكذا جمال الرجال حسب ما تعودن، ولو أنهن صاحبات البيوتات الرفيعة كُن يستحين قول ذلك الذي يُفهم منه أنهن يعرفن كل البشر بالمخالطة، ربما الآثمة أو غير الآثمة.

إذا وضعنا أدلة الرأي الذي يذهب إلى كونهن نسوة البيوت الرفيعة في مواجهة أدلة أنهن نسوة ساقطات ربما يرجح كونهن ساقطات.

ربما يحتج البعض ويقول بأن القرآن لم يذكر ذلك تصريحاً فما قيمته؟

هن ساقطات أو رفيعات هل يؤثر ذلك على الأمر في شيء؟ نريد أن نتساءل أولاً عن إخوة يوسف في القرآن ما أسماؤهم أو ليس لأسمائهم قيمة أبدًا؟ لقد تخطى القرآن ذلك أما التوراة فلم تفعل.

وذكر أحد عشرًا اسمًا في سورة يُعد حشوًا أو كثرة قول لا يراه القرآن بلاغة، كما أنهم إخوته من أب واحد وأمهات شتى، كما يرى التوراتيون، إنهم أبناء أربع نسوة ليئة وراحيل وجاريتيهما.

فكذلك أغفل القرآن التصريح بكون النسوة من يكن! فبالضرورة في كل مجتمع نسوة ساقطة يتكسبن بأجسادهن وأخريات رفيعة، وهذا ليس مدار عجب، والرجال لا يخفى عليهم ذلك، بل قد يشتم الرجل رائحة المرأة الفاسدة، أكثر من المرأة الصالحة؛ كما تشير العفونة إلى جسد ميت، ولو أنه صحيح محبوس ببيت ما أحس به أحد، لكنهم قالوا إن يوسف حتى هذه الحال لم يكن نبيًا، بل كان ابنًا لنبي فحسب، تجري عليه عاديات الزمن، وإنه نُبئ فيما بعد.

وإنه ليكاد يكون توكيدًا عظيمًا لما ألمحنا إليه من قبل بأن النبوات قبل (الرسول الخاتم) لم تكن إلا دعوة توحيد، ومكارم أخلاق، وضرب هو نفسه المثل في العفاف الجنسي الذي يَعُده بعضهم أعظم مكارم الأخلاق.

ويوسف في خلال حياته وآثاره كلها لم تشهد له كتب سماوية أو وضعية بأنه قد أُثر عنه دعوة خاصة في سبيلها المهالك، وهو لم يدع كثيرًا إلى التوحيد، وتنبهنا السورة لدعوته لأصحاب السجن، ولما جاءته الفرصة سانحة لدعوة الملك الذي هو رأس الأمة إلى التوحيد، لم يفعل، بل شغله السؤال عن حال النسوة، وشغلته تبرئة

نفسه من تهمة ظالمة أودعته السجن، وربما لو قارنا هذه الحال بحال (الرسول الخاتم) وهو يُتهم من عقلاء قريش ووجوه العرب بأنه شاعر، ساحر، كاهن، مجنون، ورأيناه لا يُعير هذه التُهم الظالمة بالاً بل يمضي في طريقه إلى التوحيد، لقلنا إن (الرسول الخاتم) يشغله أمر رسالته عكس ما يشغل يوسف أمر نفسه، فهو وكل من كان من قبله ليسوا بمرتبة السمو النفسي والإيماني الذي زاد عنها (الرسول الخاتم) طويلاً.

ولو أننا نحّينا حياة يعقوب قبل بيع الغلام يوسف جانبًا وانتبهنا إليه بعد ما جاءته إخوته بدم كذب، وادعوا أن الذئب أكله – حتى إنه لم يفترسه، فلو قالوا افترسه فالافتراس هو نخب الرأس وأكل بعض الجثة، فلا بد يبقى من جسده ما يدل عليه من شحوم وأطراف مثلاً، أما قولهم أكله الذئب، فتعني أنه لم يُبق منه ولم يذر – لعلمنا أن يعقوب جزع حتى فقد بصره بالكلية وتحوط بحزن عدّوه مستقبلاً ضلالاً مبينًا.

أما (الرسول الخاتم) فيضيع منه حمزة ومصعب ولا نبوءة عنده بعودة هؤلاء وكذا القاسم وإبراهيم وبناته وبعض زوجاته فما يُغلّف نفسه بحزن يُغفِله عن أمر دعوته، بل إن حياته وروحه أقل شأنًا – عنده على الأقل – من أمر دعوته.

إن قصة يوسف لا يبدو لنا منها الجانب الإيماني العميق الذي يكون لصالح الرسل، بل هي مكارم أخلاق عظيمة، ووفاء لسيد أكرمه وآواه دون إخوته.

وامرأة العزيز هذه قد نفت عن نفسها شيئًا لشد ما تشبثت به النساء في كافة مراحل الحضارة وغير الحضارة، ألا وهو الأمومة، فإن عاطفتها تجاه الولد قد ضاعت إزاء رغبتها الجنسية العارمة، ولو أن الأمر مجرد رغبة جنسية إذن لرأت في غير يوسف بلا ريب

مجيب، لكن بالإضافة إلى ذلك فهناك حُسنه غير المتكرر.

أيكون حُسنه هذا قد أضاع من جنبات قلب المرأة أمومتها وإن كانت الأمومة مكذوبة؟ لقد أضاع الحسن رباطة جأش النسوة، وفعلن بأيديهن الأفاعيل، لكن المرأة على كل حال هي التي يكون عليها أن تنتظر ولا تراود أحدًا عن نفسه.

لكن لنفي الأمر حقه بقي أن نتساءل عن عزوف يوسف وإعراضه عنها للأسباب التي ذكرنا، أم أن السبب الحقيقي بوصفه قد تمكنت منه الفطرة السليمة والقويمة، التي دفعته لهذا الإعراض عنها؟ أي هل لكونه من المعصومين ما جعله يأبى عليها الخطيئة أم لتشبعه بإحساس أنها أمه؟ ولقد قالوا إن بعض الأعراب أدخلوا فرسًا لينكح أمه، فلما عرفها أبى، فاشتدوا عليه فزاد إباؤه، ثم أقصوه عنها أسبوعًا، وأدخلوه إليها ليلاً وقد عتموا له منابع الرؤية والشم، فلما نكحها لهم أضاءوا المكان فرأته أمه، ورآها الابن، فكمدت حتى ماتت، أما هو فظل طويلاً يجاهد حتى قطع ذكره بأسنانه ثم مات.

تلك فطرة الحيوان، فكيف بيوسف إن أحب يومًا تلك المرأة التي أكرمت مثواه وآوته، وظنها كراحيل؟

وقوله مثوى يدل على أنه الملاذ، فإن هذا الطفل الذي جاء به التجار من أرض العبرانيين إن لم يحسن إليه فيكون مصيره الضياع.

فيوسف لا ريب نظر إليها نظرة أمومة، ولو ليوم واحد، ولو لساعة واحدة، بل للحظة واحدة مع استقامة فطرته وهدوء طبيعته لتنفي عنه للأبد أن يطأها ويتزامن مع هذا الوطء وخيانة تلك الأمومة وإن اعتملت في بواطن اللاوعي - خيانة ربه وسيده - وكذا مجرد ارتكاب الخطيئة، ولقد تشددوا من بعدُ في الزنا بالمرأة المتزوجة دون البكر.

إن كل شيء في الحياة وفي الطبيعة يرفض أن يكون للمرأة أكثر من رجل، ولا يأبى أن يكون للرجل أكثر من امرأة، إلا النساء، فهن وحدهن اللاتي يرفضن ذلك، وقد يذهبن إلى تحقيقه مخالفات كل ما قد اتفق للفطرة والعرف والعادة، وهن إزاء تحقيق مثل هذه الرغبة يقلن بقحة ووقاحة مثل ما قالت امرأة العزيز: أنا راودته عن نفسه فاستعصم، وإن لم يفعل ما آمره ليسجنن أو عذاب عظيم.

في مثل هذه الحالة يكون الرجل محاطًا بشهوة المرأة ورغبتها وإن للنساء كيدًا أخبرتنا عنه السماء بأنه كيد عظيم.

ولا يكاد يكون كيدهن عظيم بمثل ما تكيد به لمثل هذه الأمور أما فيما عداه فإن كيدهن كان مخذولاً.

وإنا إن جردنا يوسف من بنوته ليعقوب فهل يكون لمثل هذا السبب نبيًّا حسبما تحكي لنا وقائع تلك السورة وسفر التكوين، وما انفصل عنهما من شروح وتعليقات؟

إن حال زليخا معه حال امرأة ربما تكون مقهورة بسبب ضعف زوجها مع شاب رأته يرتع ويلهو في بيتها، لكن ربما تكون بواطن يوسف حزينة لفراق أهله، فكسته هذه الأحزان مسحة جمال وعمق أكسبته حسنًا فوق حسن أمام النساء.

هي تريده، تبتغيه، تشتهيه، فيلوذ بعيدًا ثم تستحكم عليه الأمور، فتسجنه، إلا أن يوسف يجد النسوة يجتمعن له ويكدن إليه، فيجأر إلى ربه طالبًا منه أن يصرف عنه كيدهن، وإلا يصب إليهن ويكون من الجاهلين، وهو لا يهدد ربه بضياعه في المعاصي، فلن تتزحزح السماء إن فسد على الأرض مطيع، ولكن يندب سوء قدرته وقلة حيلته لربه بأن العون والفلاح من عند الله.

وهو في هذه الحال يشبه (الرسول الخاتم) في وقعة بدر الكبرى، إذ تروي الكتب أنه لما نُصب له عريشًا أخذ يدعو ربه

والصدِّيق بجواره ويقول: إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض، اللهم نصرك الذي وعدت.

هذا (الرسول الخاتم) نبي يهمه أمر العبادة، ويقولون إن يوسف نبي يهمه نفسه، وجاء المسيح عيسى بن مريم من بعد لنبي من أنبياء إسرائيل - لا أكثر - وقال قولته الخالدة: ماذا يربح الإنسان لو كسب العالم كله وخسر نفسه؟

هذا ما خشاه يوسف، ولم يتطرق أبدًا إلى نفس محمد، ولن تخرج المرأة في كل منعطفات الحياة عن حال زليخا ونسوتها قيد شعرة إلا إذا وضعنا لها تراكيب حياتية أكثر تعقيدًا كأن يكن لهن ضرائر أو طموحات ملك والمرأة - كما ذهب البعض - إذ تنجح بعض نجاحات الرجل، فطريقها إلى ذلك قدر كبير من الخبراء والمستشارين يحيطون بها كبلقيس، أو قدر كبير من أنوثتها تتنازل عنه بالكلية، وتتجرد من كونها امرأة حتى لتكاد تكون رجلاً.

لكن برغم صدق هذا وتأكيدنا عليه إلا إننا نود أن نطمئن قبل غيرنا إلى أن المرأة قبل أي فطرة وقبل أي غريزة وطموح ومجد وسمو و.... و..... إلخ، فهي أنثى ما لم تُشبع رغباتها الجنسية، فلا يتطرق إليها وهم الأمومة وهذه النقطة تحديدًا سنشرحها فيما بعد تفصيلاً.

بقيت نقطة هامة في أمر زليخا ولعمري إن هذه النقطة التي جاء بها القرآن تلميحًا وتصريحًا لهي أشد ما تعانيه المرأة إزاء المرأة وهي اتهامها لها بالضعف والخور.

نعود إلى النسوة اللاتي قطعن أيديهن وقلن ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم.

أجابتهن في التو واللحظة قائلة: هذا الذي لمتنني فيه واعلموا أن

هـذا الجمـال وتلـك الإمكانيـات الذكوريـة الهائلـة قـد راودتـه عـن نفسه فاستعصم.

والنسوة لم يرين الملائكة، لكن يعلمن يقينًا أنهم خير من البشر.

لكن تأملوا جيدًا، فهذه هي مصيبة المرأة تجاه النسـوة، والـذي يعـرف أقل القليل عـن النسـاء يفهـم مـا نرمـي إليـه، لكنـا سنصـرح أكثر إذ أن الأمر غير خاص بزليخا ولا بيوسـف، بـل خـاص بـالمرأة كل المرأة والرجل كل الرجل.

إنهن قد رأينه كريمًا، وليس ببشر، أي يعلو فوق البشر قليلاً، هنا انتفى ما كان منهن من لوم وتأنيب لها، إنًا سنصرف النظر هنا عن كون النسوة سـاقطات أو رفيعـات، فعلـى كـل حـال هـن رأينهـا محقـة، وذلـك مـا أكدتـه ولامـت علـيهن هـي وعابـت أن يلُمنهـا، فدفعت عن نفسها تهمة الضلال المبين المتهمة بهـا مـن ناحيـة، لكـن بقيـت الناحيـة الأهـم فـي المـرأة عمومًـا، وعنـد زليخـا – هنـا – خصوصًـا – ذلـك وهـو ضـلالها إليـه، إذ تقـول عيـونهن لهـا بعـد هـذه المحاورة! كيف لا تستطيعين وأنتِ سيدته أن تصـلي إليـه وتحصـلين على مشتهاكِ منـه؟ إنـكِ إذن امـرأة ضعيفة غير قـادرة علـى إغرائـه، لعله يراكِ قبيحة، إنكِ لمخذولة! فنفت وكظمت غيظها مؤكدة أنه سيفعل ما تشتهي منه أو يسجن أو يعذب؟

تبرئ الآيات يوسف من الخيانة للعزيز وتثبت عليها هـي أنهـا التـي همت به بنطق ذلك الرضيع الذي شهد عليها وهو من أهلها؟ ثم بعد ذلك رغم وضوح تبرئته عليها يقول لها استغفرى لـذنبكِ، ورغـم هـذا يسجن بأمرها!

وإزاء هذه الحرب الشرسـة بـين النسـوة وزليخـا، وإن كـانـت غيـر منطوقة أو معلنة وهذه هـي شـأن حـروب النسـاء، فـإن يوسـف خشـي مغبـة تلـك الحـرب، وجـأر إلى ربـه ليصـرفهن عنـه، وربمـا تـردد فـي

خَلَد زليخا ساعتئذٍ، إنهن يرمينها بمعتبات ليست فيها أبدًا.

هذا شاب هو شاب ولم يكنَّ يدرين أنه نبي أو إنه ابن نبي، هو حسن وجميل، طبعًا تتعاوره رغباته الجنسية، فما بالكِ يا زليخا أقل شأنًا من أن تسيطري عليه، أنتِ ناقصة الأنوثة.

وهذه التهمة وحدها إزاء المرأة أعظم عندها كثيرًا من العقم الذي دومًا يتهمونه بأنه أشد ما يصيب النساء، بل هو أهون من ذلك الاتهام بمراحل كبعد المشرق عن المغارب.

والمرأة تفهم أنها بلا رغبة بلا حياة، بل هي تُقاتل لا في سبيل شيء إن حُرمت منه حتى الموت إلا في هذا السبيل.

ولذا نراها اليوم تُكثر في مباهج زينتها برغم كل ما تعلمه عن ضرر هذه الزينة وذلك الإسراف.

وما فتأت البشرية تكابد من جراء هذا.

قد تكونين أنتِ يا زليخا ناقصة الأنوثة ولا يكون جوهركِ كمظهرك، وإنه لم يقنع بكِ كأنثى فاتركيه لي.

ولعل كل أنثى وهي يجول بخاطرها هذا الخاطر غير العجيب ولا البعيد، قد استغرقها الخيال، هي تلاطفه وتداعبه وقد حظيت بمثل فرصتها من القرب المكاني منه ودواعي السيطرة عليه، فتخيلت أنها معه تضاجعه، فاستغرقها الجماع حتى قطعن أيديهن وما أحسسن.

إن زليخا بعد إثبات حُسن يوسف وإثبات كونه مطمعًا لكل أنثى في الدنيا، ورأت أنها متهمة بهذه التهم:

١ - إما نقص جمالها وأنوثتها، أو أن جمالها يصاحبه بله يفقده جوهره وإحساسه، لكنها تصمم وتصر وهذا ينفي بلاهة مع الجمال.

٢ - وإما قلة حيلتها إزاء الإيقاع به.

ولا يشغل المرأة سوى هذا أبدًا إزاء مثل هذه القضية، وقد تفرض الظروف على نوع من النساء الفرض الأول وهو نقص الجمال، فتعالج ذلك بعوامل التجميل والتجمل الأخرى، وإلا فهي لا دخل لها في طبيعة خلقتها وتركيب أعضائها، فتسلم بنقص يعتورها في الجمال، والخطأ ليس منها، بل من عند الطبيعة التي شادت ذلك، ولا سبيل للإعتراض على ما خلق الله.

أما الفرض الآخر أو التهمة الأخرى الموجهة صوب زليخا فهي ما لن ترضاه أنثى ولا يمكن إرجاعه للطبيعة بحال من الأحوال، فالكفر أهون وأقرب للطبيعة النسائية من اتهامها بضعف حيلتها وقلة قدرتها على الإيقاع بالرجل.

وإلا فأين الشيطان في الدنيا؟

إنه يعمل في هذه البؤرة ويوجج نيرانها تأجيجًا شديدًا.

فزليخا لن تستعمل معه من بعد هذه الحرب الشرسة مع عيون النسوة إلا السجن أو العذاب، ولن يكون عذابًا جسديًا لئلا يؤثر على جماله فيما بعد أو على طاقته، ولعلها تعمد معه إلى السجن الذي يشبه عندنا السجن السياحي.

وإن كان في معركتها النسائية سلاح فهي السكاكين وإن يكن جراح فهي أيدي النساء، وإن يكن مهزومات ففي كل التصاريف وحدها زليخا المهزومة.

ولقد قالوا: رُبَّ قتيل شجاعًا ولعمري إنه المنتصر ويشعر بذلك القاتل الذي قتل ذلك القتيل.

تتبدى هذه الصورة هنا بحالٍ أعظم من مثل هذه الحال، ولكم وددت لو كنت مصورًا، لأصور هذه اللحظة العظمى عند بيت زليخا ومتكآتها وتلك النسوة وهن ينظرن إليها، وكأنها القتيل

تنظر إلى عيون قاتله، وقد تفحمت زليخا بصدٍ شديد، ورغبة امتلكت عليها شغاف القلب، وملك الحياة، فلعمري إن نظرتها إليهن تساوي ملكوت النساء وخلودهن.

ولست أدري أن هناك في عيون البشرية نظرة أحدً ولا أشدً من نظرة زليخا المقهورة في ما لا تملك أن تسلم به أبدًا لأعدى أعدائها وهن النساء، ساقطات كُن أو رفيعات.

ولم يكن ليوسف إزاء هذه الحرب سوى اللجوء إلى الله خالق هذا كله، وغيره، ليصرفه عنه وإلا فإنه كرجل – مجرد رجل – مهما أوتي من قوة لن يتحمل أبدًا أبدًا الصمود أمام المرأة بعد هذا التأجيج.

فهل كان له من ملجأ إلا السجن دخله راغبًا فيه ملاذًا من الخطيئة؟ لقد تجاوز الأمر مجرد الرغبة، وحسن رجل مرغوب فيه، بل لقد تجاوز الأمر كونه ولدها أو ربيبها أو معشوقها، وتجاوز كونها عاهرة من قبل مثواه أو من بعدُ، إن الأمر عندها لم يعد يُحدً إلا لتحقيق رغبتها، ولعمري ستصل إليه وعدم الوصول يعني الممات ولعمري إن الحروب في البشرية لا تتجاوز مثل هذا الاستعار.

فلو أننا قد كشفنا جميعًا عن رغبات النساء التي تشابه هذا، إذن لكانت الأرض مركزًا للشمس وتفاعلاتها النووية أو أشد.

فهل صُرفت أفعال زليخا بعد صحصحة الحق واعترافها، هل صُرف يوسف عن كونه نبيًّا؟

هنا اضطربت الأساطير ولمّا ندري أحقًّا كان أفرايم ومنسى ولداها منه أم لا.

إلا أنها ستظل المرأة كما تجسدت بالوضوح الذي أوضحناه، فمن منكن يا صواحب يوسف تريد أن تكن زليخا؟

وكلكن منها قريب، حتى من كُن في حضرة (الرسول الخاتم)؟ إن الأمر عند النساء لواحد.

الفصل السادس

زوجة أيوب

كثيرون هم أنبياء بني إسرائيل الذين لم يذكرهم القرآن، والإسلاميون يدركون جيدًا أن هناك رسلاً قد علموهم وآخرين لم يقصصهم القرآن علىٰ الرسول الخاتم.

ولكن الثابت أن القرآن ذكر ما يقرب من خمس وعشرين نبيًا ورسولاً، ولقد فصَّل القول في ذكر بعضهم، والآخرين عرَّض بهم تعريضًا دون الإفصاح الكثير.

وعلل البعض ذلك بأن القرآن ليس كتاب تاريخ، فهو يذكر القصص التي يراها موطن عبرة لأتباع الرسول الخاتم ومن جاء خلفهم، ويذكر قصصهم للمحاجة مع أصحاب الرسالات الأخرى، أو لمجرد الجواب عن سؤال كما كان أمر يوسف والكهف مثلاً.

وقالوا إن هذا القصص إنما هو لتسلية الرسول وتعزيته فيما يصيبه وتثبيت فؤاده. لكل هذا لم يذكر القرآن كافة الرسل، وقالوا إن الرسول الخاتم قد قال "إن علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" أي أن أنبياء بني إسرائيل كثيرون، وقد يُفهم من ذلك أن فضل العالم من أمة محمد كفضل نبي عندهم، أما النبوة التي يتبوأها النبي الخاتم فلن يتسامق إليها إلا من يدعي من أمته أنه يماثله، ولعمري هذا لم ولن يحدث، فليذهب بها وحده.■

والتوراتيون يعلمون ذلك، وربما طمعوا لإخفائه لما قد يغيب عليهم من تصاريف معهم إذ يقتلون فريقًا وفريقًا يكذبون. ولما ذكر التوراتيون أيوب ذكروه كرجل صالح ليس يفعل الشر من بني إسرائيل، برٌ بالناس مستقيم الفطرة، وهم قد أفرطوا في وصف أمواله حتى لكأنه يملك الأرض والنبات والحيوان والإنسان، ولم يخالفهم في ذلك الإسلاميون كثيرًا، بل لم يتعرضوا لثروته ومبلغها فالمال عندهم له فهم مُغاير.

ثم إن التوارتيين قد ذكروا أن بني إسرائيل قد ذهبوا ليقدسوا الله، ودخل الشيطان معهم فيسأل الله الشيطان: من أين أتيت؟

فيجيب: من الجولان في الأرض.

فيقول له الله: هل رأيت عبدى أيوب إنه لا يفعل الشر وغير الخير لا يصدر منه!

فيقول الشيطان: أمجانًا يفعل ذلك؟ إنك قد بسطت له الأرزاق، ثم يعدد الشيطان ما عند أيوب من نعم ويقول: لو أنك قبضت أمواله لجدَّف بك، أي سيكفر بعبادتك.

فأعطى الله لإبليس القدرة على إفساد ماله، فما هي إلا ساعة حتى يجيء لأيوب رسول من عند كل مال هو يملكه يخبره بهلاكه وهلاك عبيده، إلا هو إنما ينجو هذا الرسول حتى يخبره ثم يموت. وكأن الشيطان لم يستبق من عبيده إلا من يخبرونه ثم يموتون، حتى لا يكون من بعد المال عبيد يعملون لأجله لكن أيوب لا يجدِّف بالله، بل يقول: للدنيا عريانًا قد خرجت وعُريانًا أخرج منها، فليكن اسم الله مباركًا.

فيعود الشيطان ليؤكد لله أن المال لا قيمة له في مسائل العقيدة ما لم يصحبه ضرر في الصحة، وسقم في الجسد،

فيعطيه الله السبيل على أيوب، فيمرض أيوب، حتى إن لحمه يتهاوى وما يملك شيئًا سليمًا إلا قلبه ولسانه، فيقول أيوب: ما دام لساني سليم فلن أقول به إلا الخير.

إلا أنه بعد خسارة ماله وأولاده – وقيل كانوا ثلاث بنات وسبعة رجال – وفقده للأهل والأحبة بات مرضه عظيمًا فتجافاه الناس كلهم أجمعون إلا زوجته، فمن تكون زوجه هذه؟!

قالوا اسمها رحمة. وقالوا بل هي ليا بنت يوسف بن يعقوب، أو قالوا بل هي ابنة يعقوب مباشرة.

المهم أنهم جاهدوا ليرجعوا نسبها إلى البيت النبوي وما دامت هي زوجة نبي وبنت نبي فهي يسري عليها ما يسري على الأنبياء، أي تكاد تكون معصومة إن لم تكن حقًا كذلك.

وهم في هذا قد تعنتوا تعنتًا عظيمًا، ولعل أيوب بات يُضرب به المثل في تحمله ما أصاب ماله وجسده، قد شعر بمرارة ذلك الفقر والهجر والخذلان من الناس. وزوجه قد طالبته مرارًا بأن يطلب إلى ربه أن يعفو عنه ويرحمه، إلا أنه قال لها: سبعون عامًا قد كنت فيها مُنعمًا، أفلا أصبر على بلاء ربي مثلها؟ (أو ستون عامًا بحسب بعض المرويات)

وهم قطعًا اختلفوا في عدد سنوات بلائه، من قال إنها ثلاثة أعوام ومن قال بل ثمانية ولكن الرأي الراجح أنها ثمانية عشرة عامًا.

وقيل إن رجلين من أخص خاصته اجتمعا وقال أحدهما للآخر: إن أيوب قد أذنب ذنبًا عظيمًا بسبب أن الله منذ ثمانية عشرة عامًا لم يعفُ عنه، فلما بلغ ذلك أيوب حزن حزنًا أليمًا، وناجى السماء.

كما أن زوجه فيما زعموا قد خرجت تعمل عند الناس أجيرة لتأتيه بالطعام، فلما تفشى خبر مرضه وأنه يُعدي وقد تنقل للناس

داؤه صدوا عنها، فلما لم تجد موئلاً للعمل، اضطرت لبيع ضفيرة من شعرها، وأتته بطعام كاذبة عليه عن مصدره، وفي اليوم الثاني فعلت مثلها، فأصرَّ أن يعرف مصدر الطعام فكشفت عن رأسها، فرآها بلا ضفائر هنا خر ساجدًا وقال: ربِّي إني مسني الضر، وأنت أرحم الراحمين، وقالوا: ظل ساجدًا ثلاثة أيام، حتى خرجت زوجه لبعض حالها فوجد سبيلاً شرب منه فعاد جسده صحيحًا ونزلت إليه سحابة فأودعته ذهبًا وفضة فأخذ يعبُّ منها عبًّا، والله يقول له: ألا تشبع يا أيوب؟! (انظر القرآن سورة ص ٤٢)

فيجيب بأن رحمة الله لا شبع منها.

فلما تعود زوجه لا تجد الزوج المريض، بل تجد رجلاً صحيحًا يشبه أيوب حال أن كان صحيحًا، فيخبرها النبأ ويُبدّل غير أهله، وإنه كان لما رآها باعت ضفائرها نذر أن يضربها مائة جلدة حال صحوته، فعافاه الله من ذلك بتخريج يرجع إليه المريد، ومفاده أنه أوتي شيئًا به مائة شعرة وضربها به ضربة واحدة.

وزعم التوراتيون أنه قد عمَّر بعدها أربعة أجيال بعدها رأى فيها أبناءه (الجدد) وأحفاده وأولادهم وأحفادهم هذه بإيجاز هي قصة أيوب كما يراها التوراتيون وبعض مفسري الإسلاميين.

والخلاف بينهما جد بسيط حتى لا يكاد يكون خلاف سوى في بعض التفاصيل.

لما ضربوا بأيوب المثل في الصبر في كل الديانات وربما الحضارات، وهموا بأن يعدوا زوجه صدِّيقة، حتى التمسوا لها نسبًا يصل بها إلى زمرة الأنبياء، ولم تفصل أسفار العهد القديم ولم يصرح القرآن بذلك ولم يلمح إليه، إلا إنه من الثابت أن هذه الزوجة عند الجميع كانت صالحة وأنها بموقفها هذا من أيوب تُعد من خيرة نساء أهل الحياة، ولكننا رأيناهم قد ضربوا عنها صفحًا في

تعدادهم لخير نساء العالمين، ولم يذكرها كذلك الرسول الخاتم حين إخباره عن امرأة فرعون ومريم وخديجة (التي سيكون لنا معها حديثًا طويلاً في هذا السِّفر) وفاطمة، كذلك لم نقف لها على موقع مشهور من خُيرة النساء رغم تعلق بعضهم بجعلها من أهْل بيت النبوة الخالصة.

إن هذا الأمر ليكاد يكون مشكلاً من الوهلة الأولى العُجلى، إن هذه المرأة لهي فاضلة، إن التمسنا لها الفضيلة، ولكن إن نظرنا لمورد فضيلتها هذه لوجدناها قد دفعت إليها دفعًا.

قالوا إن أيوب كان عنده من المال ما لا يكاد يحصى وأن عنده كلاب حراسة كان – ربما – يأبى أن يتعلق بها بعض الناس الذين هجوه ونفروا منه حال ابتلائه.

ولقد كان الناس يتسامعون ببره وبدينه وبماله ويبجلونه ويحترمونه، وأنه ما كان أحد في المدينة كلها يجهله ولا في بني إسرائيل.

بالضرورة هم يتسابقون إلى معرفة أخباره فهو يكاد يكون القائد أو الزعيم أو النجم فيهم، فهم يعلمون أولاده وزوجه وكل أحواله.

فلما قُضي له ما قضي وأهلك الشيطان ماله وصحته، ترك له زوجه، ولسنا ندري لِمَ فعل الشيطان ذلك؟

قالوا إن الله لما أبدله مالاً خيرًا من ماله الأول خيَّره أن يُعيد إليه أهله من الجنة حيث ينعمون، أو يبدله أهلاً غيرهم فاختار لهم النعيم واستبدلهم بغيرهم. أفيكون الشيطان قد ضن بالجنة على امرأته لما علم أنها مثواهم جميعًا فتركها له؟! قلنا إن المظنون به عند البعض أن امرأة أيوب قديسة لأنها لم تفارقه حال مصيبته وعملت أجيرة لأجل إطعامه، فهل كانت تستطيع أن تفارقه؟

لا... لم يكن لها هذا إن أرادت، فهي لن تذهب إلى مكان لا

يعرفه ولا يعرفها فيه أحد ، فالجميع يعلمون أنها زوجة أيوب، وما أصاب أيوب عرفه الناس جميعًا حتى إن مقاطعته باتت شبه مقطوع بها ، وغير خفية على أحد.

فلو أن هذه المرأة التمست غيره زوجًا لها لما وجدت أبدًا ، بل ليستحيل عليها إن هي عرضت نفسها بغيًا أن تجد من ينظر إليها.

وكطبيعة النساء حال ضعفهن البالغ أن يلتمسن القوة من الرجال، فإن تساوت القوة عند الرجال بضعفهن – كحال أيوب – فضلت قوة الرجال وإن انعدمت منابعها ، ذلك أن المرأة ليصعب عليها أيما صعوبة أن تقف بلا رجل أو زوج يعضدها.

هذا الزوج لا بد وأن يُعلن عنه أبدًا ، وما دامت هي محاطة بشهرة الزوج أو شهرة زواجها منه، فإن تلك الشهرة تمثل عقبة كئود أمام الانفصال عنه حال كون الحال طبيعيًا ، أما في حالة أيوب فطوق الشهرة يزيدها قوة في ضعف الانفصال حتى يستحيل مستحيلاً عليها ، حتى لكأنها لا تجد في أعماقها لتشبعها بهذه المفاهيم متنفسًا لإخراج هذه الأفكار.

ولكن قد قالوا إن أيوب رجل عدل وصدق، فهل يكون منه أن يجازي زوجه بهذه القسوة لأن باعت ضفيرتيها لأجل الحصول له على طعام؟

هو لم يرها مضحية له بما تملك هي، بل هي مبددة له ما يملك هو، فهي زوجه أي يملكها ، وهي قد عاشت معه طويلاً في سنين رغد ، وله عليها من الفضل ما لا مجال لإنكاره أبدًا.

ولو أنها بدأت حياتها معه حال هذه المصيبة لتركته حالاً ، أو أنها بالأحرى لن ترتبط به أصلاً.

ثم إن هي تركته فأين ستجد المأوى، سيلفظها المجتمع، وإنها

كامرأة – وهذه ميزة النساء دون الرجال – لتعلم أن أيوب لم يخطئ ذلك الخطأ الذي أورد له هذه الكوارث، إنما هو الابتلاء، فهي أعلم من غيرها بطهره ونقائه، دون سواها.

وقلنا إن هذه الميزة للنساء لا يشاركهن فيها الرجال فالنساء أعلم من الرجال بالمتقين، ربما لأنهن أرض المعاصي الخصبة فيعرفن من يطأها، ومن يحوم حولها، ومن يتعفف، أما الرجل فكيف يخبر الرجل صلاحه وتقواه وورعه وليس هو بأرض الاختبار؟

يدلنا على ذلك أنها كانت تطلب إليه أن يرجو ربه فيعفيه مما ألمّ به، ولو أنها تعلم أنه خاطئ لما طلبت ذلك منه، لكنهم قالوا إن الشيطان قابلها وأعطاها شرابًا وأمرها أن تسقيه زوجها باسم صنم بني فلان حتى يبرأ ففعلت، ولذا فإن أيوب توعدها الجلد مائة جلدة.

أكفرت المرأة وهي في حجر نبي من أنبياء الله؟ إن هذه الواقعة إن صدقناها لتشهد بذلك، لكن إن رواها الإسلاميون أو التوراتيون فإن عمادهم على صدقها وعدمه الكتب المقدسة ولعمري إن القرآن ليخلو من ذكره، فما ذكر أيوب في القرآن سوى أربع مرات مرتان باسمه فقط، وأخريان بوصف حاله ومسه الضر وكشف الله عنه ذلك الضر، (النساء ١٦٣ – الأنعام ٨٤ – الأنبياء ٨٣ – ص ٤١) حتى اسم زوجه وحالها نفسه لم يتعرض له القرآن، أما التوراة فلا نظنها تخلو من تلميحات إن استبطنت أدت إلى تصديق هذا، والإسلاميون إذ يجدون في التوراة شيئًا فيسمونه الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تكذب عندهم.

لكنا نرى أن عمدة التصديق أو التكذيب للأخبار ما خلت منها الكتب المقدسة هو اتساق الخبر نفسه مع طبيعة المرأة وفطرتها.

فإن نحن عُدنا بزوجه وقارناها بحواء فهل يكون عزيزًا عليها فعل ذلك بصدد عودة ما كان لأيوب مرة أخرى؟

نحن نرى أنها ستسارع لذلك، خاصة وأنها المرأة ودومًا إذا فرحت المرأة عجلت وصبرها قليل.

فهي امرأة عاشت طويلاً في كنف السعادة، ثم جار عليها الزمان، وجاءها طبيب - كما رأت الشيطان - يعطيها دواءً ما فيه من شرور نظير العودة إلى الثراء تارة أخرى، وإن هذه حقًا لحفيدة حواء التي جُبلت مما جُبلت منه حواء.

فهل كانت تلك المرأة هي الصابرة القانتة التي تقف بجوار زوجها حال ابتلائه، أم كانت الصدمة التي لولاها لما ذهب المرض أبدًا؟ نحن نرجح الثانية، ولقد قالوا إن الإنسان حال اشتداد المرض عليه وعجز الطب عن دوائه إنما يحتاج إلى صدمة تعيده إلى صحته وهذه المرأة ببيعها ضفائرها، صدمت أيوب الصدمة الأخرى التي جعلته يسجد ثلاثة أيام حتى كشف عنه الضُر.

إنَّا نتساءل عن هذه المرأة هل هي المثل الصالح لزوجة الأنبياء؟ أم أنها قد تكافأت كفتاها من حيث الخيرية والشريرية فضرب صفحًا عن ذكرها؟ أي هل فعلت الخير اضطرارًا إليه، ولسد كافة منافذ الشر؟ ولما وجدت للشر سبيلاً اختارته وعرضته على أيوب، وكأنها تقدم إليه الجنة مع الشفاء من الشراب باسم صنم؟

إنه الطمع الذي يستطيع به الشيطان أن يجعل من المرأة ما يشاء، وقد فعل بها ها هنا ما أراد، لكن الله خذله فيها وأعاد لأيوب ما أخذه منه.

لكن بقي أن نسأل لماذا فعل الله ذلك بأيوب؟ ألأن الشيطان حاجّ الله في إهلاك الصالحين وإثبات كفرهم، كما تحاور مع الله قبل أن يكون لآدم من ذرية.

ولعمري إن بغيته لذلك النساء هنيئًا له بهن وعفا الله عنهن.

الفصل السابع

بلقيس ملكة سبأ

لعله مما يدهشنا أن المصادر التي أشارت إلى هذه المرأة قد تضاربت أيما تضارب، حتى إن البعض قد وضعوا لها قواعد ما، ثم بنوا عليها ما شاءوا حتى لكأن بعض ما قيل عنها من ضرب الأساطير ووحي الخرافة وأحاديث الخيال.

زعم بعضهم أن بلقيس هي بنت شراحبيل التي ملكت على مملكة سبأ باليمن، أيام نُبئ سليمان، وهي بنت لرجل من الإنس وامرأة من الجن، وقد زعموا أن أمها قد ذبحت ملك الجن الذي لم يوافق على الزواج بالإنس وزعمت وقومها أن سبب موت الملك هو اللعنة الإلهية المقدسة التي باركت الزواج، غير أن الملك عارضه فلقي هذا المصير، لذا فقد رضخ الآخرون قسرًا وقهرًا، وكانت نتيجة تلك الزيجة التي لم نعرف عنها سوى ذلك تلك المرأة موضوع حديثنا.

ربما يجرنا التصديق لهذه المزاعم أن نخوض في الحديث عن الجن ذلك العالم الذي دل اسمه (مجرد اسمه) على كافة خصائصه الباقية.

قال غير مصدر إن الجن كانوا سكان الأرض الأولين، وكانوا يتقربون من الله ولا يعصون، حتى سولت لهم أنفسهم أنهم قادرون على تغيير خلق الله، فعتوا وفسدوا وسفكوا الدماء فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، إلا أن إبليس — كما قيل وهو أحد زعمائهم قد

تبتل كثيرًا لله حتى عوفي من العقاب الجماعي، ثم ازداد تعبدًا وتقربًا حتى عُدَّ من زمرة الملائكة لكثرة ما أدى من عبادات.

وللبعض عدة ملاحظات على مسلك إبليس رغم أنهم في الأساس لا يسلمون بصحة ما نقول فهم يتساءلون كيف عوقبت الجن كافة، ولم يبق سوى إبليس، إن جنسًا ينقرض بالكامل، ولا يبقى منه سوى فرد واحد، غير قادر على التناسل والعقب، فإن هذا الفرد سيدخل بيولوجيًا واجتماعيًا، وربما عقائديًا مع جنس آخر إما أعلى منه أو أقل وقد يكون في مستوى مُقارب.

ولما قالوا إنه قد خلق من نيران والملائكة خلقت من النور، فهو إليها يسعى حتى دخل زمرتها ودليلهم على ذلك تلك الاستثناءات القرآنية له منهم.

فليس هناك فضل تعبد له أو تقرب، وما هو من المقربين، فلو أن أي حيوان خلقه الله وأدت ظروفه إلى مثل هذه الحال لفعل ما فعله إبليس، فهو مدفوع إلى ذلك دفعًا، وليس له عقل يفكر به، ولا قلب يهديه، فالطبيعة نفسها هي التي أدت به إلى هذا المقام ولم يكن بعدُ ما هو أدنى منه ولا ما يعادله، فليس سوى الملائكة وهم أنفسهم – أي الملائكة – أخبرنا غير مصدر أنهم ليسوا على درجة واحدة، فمنهم المقربون، وهناك العالين ورؤساء الملائكة، وكل ملك له مهام محددة يقوم بها، وهناك رئيسهم جميعًا وأكثرهم قربًا من الحضرة الإلهية يسميه الإسلاميون بأمين الوحي (وهو عدو اليهود الذي ينزل إليهم بالعذاب) وهو الموكل بالوحي إلى الأنبياء، وقالوا إن الملائكة صنوف شتى منهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع.

هم عالم لا يتناسلون ولا يتناكحون، إلا أنهم يتزايدون زيادة مطردة، – وهم ظنًا لا يموتون – وبعضهم يؤكد أن الآدمي الواحد يحفظه عدد من الملائكة كبير، كما أن هناك ملائكة تحصي

عليه خطواته وأخرى تحاسبه، وهم قوم مسيرون لا يخطئون أبدًا، ولا يعصون ربهم، أستطيع أن أقول: إنه لا رغبات عند الملائكة ولا تنازعها الشهوات ولا وسوسة الشيطان، وقد سُئل (الرسول الخاتم) من أصحابه عن أفضل الخلق وقالوا: آلملائكة؟ قال: لا... كيف لا يؤمنون وهم في الحضرة الإلهية، فقالوا: إذن الأنبياء؟ قال: لا.. كيف لا يؤمنون وعليهم يتنزل الوحي؟ قالوا: إذن فنحن – أي أصحاب الأنبياء عمومًا وحوارييه؟

قال: لا... كيف لا تؤمنون وفيكم يتنزل الوحي؟

قالوا: فمن إذن؟ قال: قوم يأتون من بعدكم يجدون المصحف بين دفتي كتاب فيؤمنون... إلخ. يُلح هنا (الرسول الخاتم) على الإيمان بالغيب، الذي هو ذروة عقيدته ودينه، والملائكة لا يصح لنا أن نصفها بالتقوى، ولا حتى بالعبادة: لأنها مصروفة إلى ذلك حتمًا، ولا عمل لها سوى ذلك، ولا يصح لنا أن نصفها بالحياة، لأنها قطعًا لا تموت، فهي لا تولد ولا تنمو، فالمخلوق منها يخلق بهيئة يظل ملازمها، ولا نصفها بأي صفة من الصفات التي ننعت بها بشريتنا.

لكل هذا تداخل إبليس مع الملائكة وهو دومًا ينظر إليهم فيراهم نورًا لا يأتي منهم شر أبدًا، وهو وإن كان من النيران لكنه يُصدر الشرور.

ولما خُلق آدم لا من نار ولا من نور نَفِي عليه مكانته التي فاق بها هؤلاء النورانيين رغم أنه من طين، وحقد عليه ونحن هنا نرى أن آدم كان وحيدًا، وزعموا – كي يبدو تناسل إبليس طبيعيًا – أن زوج إبليس تدعى عزازيل، لكنها لم يرد لها ذكر في تلك الآونة الأولى من الخلق.

إذن فإن حواء بكل صورتها ومحتوياتها قسيم مشترك بين آدم وإبليس رغم خلقها الآدمي، إلا أن بعض خُلقها ودخائلها إبليس.

فالمرأة عمومًا آدمية الخلق، إبليسية الخُلق، ولئن كانت بلقيس هكذا حسبما يقولون هي إذن لم تكن آدمية تمامًا، ولا جنية نقية!

لكنها وقومها كانوا يعبدون الشمس، كما أخبر هدهد سليمان في المصادر الإسلامية.

والهدهد يتعجب لهذا الأمر، ويرسل الأسئلة الاستنكارية لحالهم، إذ كيف يسجدون لله الذي يعلم الخبء في السماء والأرض، – والخبء في السماء هو المطر وفي الأرض هو الحب أو النبات – والهدهد يتحدث عن علمه – سبحانه – بالخبء لأنه من مصادر تفرده – أي الهدهد – بهذه الخاصية ومن تدارس قصة سليمان يعلم تفاصيل هذا جيدًا في شروح وتفاسير القصة في القرآن. أما المصادر التوراتية فلا يوجد بها هدهد ولا تنويه لقوة قومها، كل الأمر أن سليمان قد جاء بخوارق، وأوتيت المُلك العظيم، فذهبت إليه بهدية تستكشف بها ذلك الأمر، فلما كشفته واتضح لها صدق ما بلغها عن سليمان أعطته الهدية وانصرفت لحالها، وهي غالبًا تستميله بهديتها والتوراتيون يبالغون في تقديراتهم للهدية أي مبالغة، والإسلاميون يرون أنها عادت مع رسلها، وقد أخبر سليمان أن لديه ما هو خير منها، وتكاد القصة في المصادر الإسلامية تكون أكثر اكتمالاً من غير مصادرهم، ففي المصادر الإسلامية إلحاح على نبوة سليمان ودعوته وهدهده – إلى التوحيد، وهم قوم يعبدون الشمس دون الله، فلو أن سليمان ملك لفرح بالهدايا وعدَّها من قبيل الجزية وهذا ما ذهبت إليه المصادر التوراتية.

لكنه في المصادر الإسلامية نبي لا يقبل الهدايا – الرشاوى – في سبيل دعوته، ويجند الجنود، ويجيش الجيوش، ويُرسل إليها برسالة مع هدهده يقول فيها ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

(القرآن سورة النمل ٣١) والإسلاميون يؤكدون أن الرسالة أُلقيت إلى بلقيس من كوة لا يطلع عليها أحد ، وأن للكتاب هالة عظيمة فسمته "كتابًا كريمًا".

وقالوا إن قصرها كان عظيمًا ، وله ٣٦٥ طاقة من الشرق ومثلها من الغرب، بحيث تدخل الشمس منها وتغرب من الناحية الأخرى، كي يسجدوا لها كل يوم في لحظة الإشراق وفي لحظة الآصال، وكأنهم استلهموا طقوس العبادات التي تؤكد على فرضية الصلوات بالغدو والآصال. لكن أي الجانبين كان أكثر صدقًا ، كون سليمان ملك يقبل الهدية ويريد الزواج ببلقيس؟ أم أنه نبي لا يقبلها ويشغله أمر حريهم حتى يكونوا مسلمين؟

أما الهدية وحدها فليست هي المعوِّل الرئيسي وليست هي التي تحدد ذلك الشيء الفصل، (فالرسول الخاتم) قد أرسل إلى كيرس مقوقس مصر مع حاطب بن أبى بلتعة أحد صحابته يدعوه إلى الإسلام فرد رسوله بهدايا قبل بعضها واعتذر عن الباقي.

لكن المتأمل للأمر هنا يجد البون شاسعًا بين هديته وهدية سليمان بقبوله الهدية ، ففي الأصل استدل بعض المجوس على نبوة (الرسول الخاتم) بقبوله الهدية ورفضه للصدقة ، ووجود خاتم النبوة بين كتفيه ، إذن فقبول الهدايا لا يشينهم، إن هذا التضارب في أمر الهدية خطير وإن بدا هينًا لذوي البصائر الضيقة، فالقصة قد رويت على اختلاف شديد ، إلا أن المدقق لها جيدًا يراها واحدة، وإن انفكت الجهة.

ففي المصادر التوراتية نجد أن بلقيس هي التي ذهبت إلى سليمان ترى وتتيقن من صدق ما سمعته عنه، وهي - إذًا - إنما تزوره زيارة ملوك، وحق على الزائر أن يصطحب معه هدية، ولتكن من ذهب أو ماس أو فضة... إلخ حسب قدرها وقدرتها وقدر

سليمان فيما تظنه. وليريد نكاحها إلا أنها امرأة مشعرة، فيسأل الجن عن كيفية إزالته فيخترعون له الإمكانيات اللازمة لذلك، فهل يكوِّن سليمان بنكاحه لبلقيس هذا نسبًا مع الجن؟ وقيل إن قدميها تشبهُ دُبر الجن؟ أما المصادر الإسلامية فتُرينا أنْ سليمان ما كان يسمع عنها ولا يعرف موطنها، لعله لم يكن يظنها امرأة – والنساء تحت قبضة استمتاعه بالمئات – تحكم حتى تصبح ملكة وفي مملكتها رجال يقولون إنهم ذوو بطش شديد. وإن سليمان كان مشغولاً بأمور بني إسرائيل، فهو ورث، عن داود المُلك والنبوة، فلم يتيسر له السياحة في الأرض، أما الهدهد وهو زعيم الطير كما يقولون، فلقد رأى ذلك – على أن البعض من الجغرافيين مثلاً يرون بون المسافات بين مُلك سليمان وبلقيس أعظم من أن يبلغه الهدهد، لكنا نقول لقد غاب الهدهد حتى تفقده سليمان فلم يجده فتوعده، ولا بد أن غيابه طويلاً يتناسب مع شيئين:

الأول: طول المسافات وبُعد الممالك.

الآخر: تفقد سليمان للطير ومما أكثره، ثم إننا لا نعلم متى عاد الهدهد بعد تهديد سليمان وتوعده له.

ولما رأى ذلك – أي الهدهد – استغرقه استكشاف الأمر، حتى تأخر عن العودة إليه، فعلم سليمان أن الملك ليس هو الفخار الأعظم، بل النبوة، هنا نظر في أمره ولما استبان صدقه، أرسل إليها يدعوها للإسلام فلما أرسلت إليه بهدية وجدته نبيًّا لا يلهيه زخرف الحياة من عند الملوك عن الدعوة الإيمانية الكبرى، وهنا استشارت بلقيس خبراءها فزعموا لها أنهم أولو قوة وعزم شديد. ويكمل القرآن القصة ويصفها بالحزم والفطنة فيجعلها تقول: إن الملوك إذ دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. (النمل ٣٤)

قالت ذلك لأهل مشورتها.

وكنا قد نوهنا إلى أن المرأة لتصل إلى الرئاسة في القوم وتسيد عليهم يلزمها أحد أمرين الأول: هو مجلس استشاري عظيم. فهي هنا تقول – حسب القرآن: ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون.

والأمر الآخر هو خلعها لنفسها عن بواطن أنوثتها لتشبه الرجال.

فهل كانت بلقيس ثاقبة النظر في كل الحالين لأنها من الجن أم من الإنس، أم أنها أصلاً لم تكن جنية بل إنسية، وهم قد اخترعوا لها هذه التهمة وذلك الإلصاق؟

وقول بعضهم إن الجن يخطف الإنس للمناكحة أمر مخالف، فقصارى ما يصل إليه أمر الجن هو الوسوسة وتزيين سُبل الباطل للإنس، لا الاشتراك معه في فعل المعاصي، أما لو كان ذلك صحيحًا وأن الأمر لا يعدو كونه الإعجاب الجنسي فعلامَ يُبنى هذا الإعجاب؟

لو أنه كان يُبنى على الجمال لتخطف الجن إذًا يوسف وراحيل أمه! لكننا لم نسمع عن ذلك، وإن المرأة بدهائها قادرة على الوصول إلى مكان الصدارة دون تصدي للبشر بتعزيز من قوى الجن، ألم تدعي سجاح النبوة في جزيرة العرب، وكان الرجال يتبعوها ويتقاتلوا من أجل نصرتها؟

ألم تخرج دبورة مدعية النبوة بقصائد تريد إطلاقها لعودة ملكوت الرب في بني إسرائيل؟ وفي عصرنا الحديث أليس يحكم بعض دول العالم نساء، وإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس وهي أسبق دول الحياة مدنية اليوم حكمتها امرأة وعلى الدوام تملكها النساء؟! أكل هؤلاء جنيات؟

وقديسة حرب المائة عام الشابة، أكانت جنية هي الأخرى، أم أنها بنت راعي الغنم؟

إن بلقيس ليست من الجن لكل المزاعم المطروحة والجهل بنسبها لا يسوِّغ لنا إلصاق التهمة لها. إلا إن ذهبنا مع التوراتيين في زعمهم أن سليمان كان يحب النساء كثيرًا حتى بلغ عدد زوجاته المئات خلا عداهن، وكن من كافة الجنسيات والديانات، وأنه عُبد صنم في بيته أربعين عامًا دون علمه، بل إن بعض زوجاته قد استملن قلبه إلى آلهتهن رغم تحذيرات الرب له، ولكن سليمان لم يستمع للرب، لذا بدد الرب ملكه، ولكن ليس في حياة سليمان، بل فيما بعده، من أجل أعمال أبيه البر داود، أهذا قول يؤثر؟

حقيقة إن النساء مائلات مميلات وأن لبعضهن على الرجال الضعاف الذين تستغرقهم اللذة بالأجساد، لكن ألم يكن سليمان مشغولاً عن نكاح ألف امرأة؟ وهل تطيق امرأة أن تنكح كل ثلاثة أعوام مرة من رجل واحد نظير أن تعبد إلهها؟ فهل يملك هذا الإله - الباطل - عليها كل شيء لهذا الحد؟ وإنا سنرى أن المرأة تكفر بالإله ما لم تنكح كثيرًا، وأخرى تتمنى الموت وتكون منسية. إن سليمان لم يكن ليفعل ذلك، وإنها لتخرصات كما أن قول بلقيس من الجن تخرصات.

على أن الأمر كله لا يسلم من شبهة، فهي تعبد الشمس لا النار ولو أنها جنية فهي إذن قد خلقت من طين امتزج بنيران ومعلوم أن مراحل خلق الإنسان فيها الحمأ المسنون والطين الذي يشبه الفخار، أي إن النيران قد تدخلت على الطين فأكسبته الصلابة، كما أكسبه الماء اللين، والهواء التماسك بين هذه العناصر، وأن الشمس ليست هي مصدر النيران، فلم يكن من الممكن أن تشعل النيران من الشمس بحرارة هي دون الإحراق بكل حال.

ولو أن المجوسية لم تتغلغل في الجزيرة العربية كما الصائبة وعبدة الكواكب والأصنام، فإنا نستبعد أن يكون خلق بلقيس

جن، وإلا فما العجب - عند الإسلاميين - من أمر الهدهد، وهو يُحدِّث سليمان بقوله ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ ﴾ إن كانت من الجن، فهي إذن تسلطت عليهم بقوة الجان، لكن منذ متى والجان يتسلط بالحكم على الإنسان، والله لم يجعل للجان على الإنس سبيلاً، بل العكس إذ سخَّر الجن لسليمان حتى إنه عند مماته ظلوا مسخرين حتى علموا من خلال وقوعه بعد أن أكلت الأرضة منسأته التي كان يرتكن عليها، وهنا علمت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب، ما ظلوا في العذاب المهين، هم لم يستطيعوا أن يتبينوا حياة رجل من مماته، فكيف بهم يتسلطون على حكم الإمبراطورية الإنسانية ولو في حكمهم لقرية صغيرة.

إن الأساطير والخرافات التي تعزو للجن هي التي جعلت كل هذه الهالة حول الجن، وقدرات وإمكانيات الجن من هذا كله ضعيفة أضعف مما يظن البعض فلو تأملنا - مع الإسلاميين - القرآن - لرأيناه يصف كيد الشيطان بأنه ضعيف.

لكنه قال عن كيد المرأة إنه عظيم، وزعموا أن الله لم يستعظم شيئًا خلقه سوى كيد المرأة، (وكذا خُلق الرسول الخاتم) ومعنا هنا بلقيس التي كادت حتى تصل من أمرها، وكيدها إنما على نفسها.

فهي كادت لأنوثتها وتسلطت عليها حتى جنّت أي اختفت فما عادت امرأة إلا في ظاهرها، ولو أن الهدهد - الخاص بسليمان - يعلم الخبء في النفوس البشرية لقال لسليمان إني وجدت إنسانًا ظاهره امرأة وباطنه رجل يحكمهم، وما وصفها كما وصف وصفهم بأن دبرها غير مستقيم، وأنها امرأة مشعرة هي من قبيل المماحكات وليس عندنا من مصدر سماوي مطلق نستطيع الثقة فيه، يؤكد ذلك فأمر السماء لا يعنيه تلك التفاصيل التي لا يبحث

عنها إلا فقيرو العقل، منعدمو الفكر.

أما كيفية اعتلاء بلقيس للحكم فهو إما وراثة أو الكيد، وهناك مئات وصلن لمثل ما وصلت إليه – وليس عندنا من وثائق – حاليًا – للرجوع إليها ولا يكفينا استبطان ما معنا لفهم علة ذلك، فلننخلع من أمرها مؤكدين أنها أسلمت مع وليس لسليمان (أي معه وليس له) لأنها ملكة وحين تسلم فلا تسلم للملك أو حتى نبي – فهي امرأة – بل للرب، وذلك ما يؤكد أنها امرأة وليست جنية، ما كانت لتخلع المرأة يومًا من الملك إلى الإيمان دون الملك مصاحبًا لها، ولو أنَّا ذهبنا نستوفي هذا الأمر حقه لاحتجنا إلى سفر جديد.

الفصل الثامن

مريم بنت عمران

المتصدون للكتابة عن مريم بنت عمران يواجهون خطرًا شديدًا، وهم بشتى اتجاهاتهم تعتريهم الخطوب قبل مجرد التفكير في الكتابة عنها.

فمن منا – نحن سكان الأرض جميعًا – لا نحب أن نقرأ عنها، حتى إنني في بعض مراحل حياتي كنت أحب ألا أقرأ إلا عنها وحدها من بقية نساء الحياة.

أقول أقرأ عنها، أما الكتابة فهذا أمر لم يكن أبدًا في حساباتي يومًا؛ فليست مريم امرأة كعهدنا بالنساء، وليست هي أنثى كما خلقت الإناث، ثم هي خلق آدمي له خصوصيات عالية.

ولو أحببت لها تشبيهًا لوصفتها بين النساء، بالغابة والدنيا كلها دروب وصحراء، فأينما توغلت في مسالكها (مسالك مريم) اعترضت الغابة، بكل ما تكنه كلمة غابة لفظًا ومعنى وتصديقًا.

كم من كاتب حاول أن يكتب عنها، ولأزعم لكم أن كل كاتب تناول سيرة مريم كان إنما يحاول أن يُجليها لنا – كامرأة – كأننا لا نعرفها، وكأنه يُقدِّم إلينا فتاة أو امرأة من مجاهل الماضي ودفاتر التاريخ المدروسة.

ولست أظن على حد ما وقفت عنده من علم أو قراءة أن واحدةً

من نساء الحياة خُصصت لها مثل هذا القدر الهائل من الكتابات.

وأحب أن أكرر - ولا أملّ ذلك - أن الكتابة عن مريم لا تستوي مع غير مريم.

فلو أنها أم نبي فليست كل أمهات الأنبياء مثلها، مهما كان النبي ومهما كانت أمه، ولو أنها فتاة عادية فلا تتطاول إلى مثل مرتبتها الفتيات ولو وزنا بها - لتفاصيل حياتها - فتيات الكون لرجحت بهن جميعًا.

ولو أنها أم فهي المتفردة بحالة - هيولية - خاصة من الأمومة التي خصصتها لها السماء بقدرتها ومشيئتها.

وإننا إن اعتمدنا على أبواب جُرأتنا في الكتابة عن مريم سنتكلم عنها من هذه المداخل الثلاثة، أما المدخل الأول فهو كونها فتاة، والمدخل الثانى كونها أمًّا، والمدخل الثالث تفردها بهذه الأمومة المخصوصة.

قد يحلو لبعض الأديان - أو المشتغلين بالأديان - أن يبدأوا ترجماتهم عن الشخصيات المؤسسة للأديان من الجانب الكهنوتي، ثم يعرجون بسيطًا إلى الجانب الناسوتي، وهم في ذلك يهدفون إلى إضفاء بعض التقديس أولاً، ثم يخاطبوننا بعقول غلب عليها وهم تأليه أو تنزيه هؤلاء المؤسسين للأديان.

وفي كل الأديان يكاد يصادفنا صنف من هؤلاء ولعل أشهر الأديان بذلك هي المسيحية يليها الإسلام استنادًا للحركات الصوفية، ثم اليهودية وهي الأقل في ذلك، فلا تكاد اليهودية تصف الرب ذاته بصفات عُليا، والذي يستبطن آيات التوراة وأسفارها بحثًا عن صفات الرب يجده يعلو بقدرته فوق بني إسرائيل قليلاً، ولو أننا أنصفنا الجرأة لقلنا: إن الرب يخدمهم ولا

يستعبدهم، وذلك لمجرد أنه يسكن في السماء وهم لا يسكنون.

ونحن هنا حال الحديث عن مريم بنت عمران لا يمكننا أن نعوِّل على المصادر التوراتية، لأنها قطعًا تخلو من الإشارة إليها، نظرًا لتوالي الأحداث التاريخية.

فلقد أرجع البعض أن آخر أسفار التوارة كتب في عام ٧٠ ق. م وهو سفر حبقوق، ومريم ولدت وعاشت وماتت بعد ذلك.

حتى إن الإنجيل نفسه هو الآخر لم يفرد لها صفحات طوال للحديث عنها.

والإسلام الذي دعا أهله إلى هيمنته على ما قبله وكونه المصدر الوحيد عندهم – الذي – لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد أفرد لها ذكرًا طويلاً، حتى إن القرآن الكريم يفرد لها سورة باسمها ويذكرها وابنها في آيات طوال، هي أعمق القصص تأصيلاً في القرآن وأحبها لدى المطالعين في القرآن، فقصة مريم تناولها الإسلام بشكل يكاد يكون تفصيليًا، أعمق مما تناولتها به المسيحية نفسها، فالمسيحية لا تستطيع أن تقدم صورة متكاملة عنها بأي لون من ألوان الوضوح ما لم يكن هذا اللون محاطًا بهالة عظمى من الأساطير.

ولعل من الخطر أن نقرر الآن ونحن في هذا السياق أن المسيحية وأناجيلها لا يمكننا أبدًا أن نتكأ عليها ونحن نكتب عن مريم، وأحب أن أسوق بعض أسباب ذلك:

أولاً: إن الأناجيل التي تعتبر الوثيقة الأولى لإثبات ديانة تدعي النصرانية أو يسميها أهلها المسيحية كُتبت في فترات متأخرة من رحيل المسيح بن مريم، ومن المؤكد أن هذه الأناجيل تناوبتها خطوب وخطوب.

ثانيًا: إن الرجال الذين كتبوا المسيحية كان بعضهم – بل معظمهم – من اليهود الذين تنصروا على يد المسيح نفسه، وبعض منهم كان من العشارين للدولة الرومانية وقت ظهور المسيح.

ثالثًا: إن هذه النصوص الإنجيلية لو أسلمناها لمهب الريح لاقتلعتها من جذورها؛ فلا تكاد تقف أمام دفقات منتقديها.

رابعًا: بشهادة أهلها أنفسهم أنها لا تصلح لتكوين دستور لدولة أو حتى قبيلة، ليس فيها من نصوص القانون معشار من عشر ما تشتمل عليه التوارة.

خامسًا: إن النظام الكهنوتى للمسيحية يفقدنا كل ثقة فيها وفي محتواها.

لهذا كله وغيره نفقد الثقة في المعطيات الإنجيلية وشروحها – عند الحديث عن مريم، حتى إن بعض الأناجيل تكاد تتغاضى عن ذكر مجرد ذكر اسم مريم.

والبعض الآخر اكتفى بذكرها قليلاً، تعريضًا لبعض الحكي عن المسيح.

ولقد أجمع نقاد المسيحيين أنفسهم أن الأناجيل كافة تتناول حياة المسيح من الخمسين إلى السبعين يوم الأخيرة في حياته مع التعريض أو التلميح لمقتطفات سريعة وبسيطة في فترات زمنية متباينة.

أما القرآن فهو يفرد لها قصصًا تحتويها وسيرتها وابنها والمسيحية التي جاء بها، فلقد تحدث عنها قبل الميلاد، وكيف أن أمها تمنت على الله ميلادها (القرآن آل عمران ٣٤ -٣٧)، ولو أننا أردنا أن نلخص ذكر ما جاء به القرآن عنها لقلنا: إن أم مريم (قيل اسمها حمنة بنت فاقوذ) امرأة عمران كانت من الصالحات وكان عمران من أهل التقى، وكان إمام بني إسرائيل في عصره، ولقد

نذرت أمها ما في بطنها محرمًا لله تعالى، أي ستجعله وقفًا على خدمة البيت وعمارته، ثم نشأت مريم في هذا الجو الإيماني وانتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا، واتخذت من دونهم حجابًا لتتفرغ لشئون عبادتها، ثم جاءها الروح القدس وقيل هو جبريل، فتمثل لها بشرًا سويًا فاستعاذت بالله منه، فأخبرها أنه جاء بأمر من ربه ليهب لها غلامًا ذكيًا، فتعجبت من ذلك؛ وهي التي لم تتزوج ولم يمسسها بشر فيخبرها أنه قضاء الله، ولا راد لقضائه، ثم تعاني من آلام الحمل والوضع حتى تضعه وتأخذه، وتذهب به إلى قومها فتعتريهم الدهشة ولا تتحدث لأنها تصوم عن الكلام فيتولى الحديث عنها ابنها الذي يخبرهم إنه نبي الله أتاه الله الكتاب، وجعله نبيًا مباركًا مقيمًا للصلاة مؤديًا للزكاة، وليس بجبار بل بأمه رحيمًا وبرًا (القرآن مريم ١٥ -٣١)، ثم تمضي بها الحياة وهي التي يرزقها ربها حتى كلما دخل عليها زكريا المحراب يجد عندها الرزق موفورًا فتعلمه أنه من عند الله. (القرآن آل عمران ٣٧)

ثم يخبر القرآن ببعض الإشارات السريعة أنها من أهل الأرض، وهي من البشر العاديين ثم تنزوي عنها القصص، ونبدأ في الحديث عن عيسى ومعجزاته وحوارييه وبني إسرائيل ومائدته... إلخ.

والقرآن كما قلنا آنفًا – يعجل في خطى قصصه بشكل بالغ حتى إنه يذكر اللمحات الخاطفة التي تكوّن مكتملة صورة كاملة، غير صارف همه وجهده للتفاصيل التي يمكن أن تستنبط، وهو إذ يذكر اللمحات متفرقات فهو يعطي في كل لمحة ركنًا من أركان القصة تكتمل الأركان باستقراء كافة مواضع ذكرها. (ويسمى روعة التكرار في القرآن)

على أننا لو بحثنا في كتاب آخر – مقدس – عن تفاصيل حياتها ما وجدنا أبدًا.

وأؤكد أن كافة المصادر – غير القرآن – التي تنسب نفسها إلى المسيح ودينه لهي مصادر ملفقة يفارقها الصواب بشتى صوره، ويعتورها الباطل أينما كان حله وترحاله، فلو أننا ذهبنا إلى عقلية الروائيين لوجدناهم أقرب العقول إلى وضع مثل هذه الملفقات لمريم، والاختلاف بشأنها الكهنوتي وصل إلى حد الذروة في السابق واللاحق وعلى الدوام وسيظل، وكذا المسيح وشأنه الكهنوتي، أما شأنها الناسوتي فقصتها لها بعض الخطوط العامة التي تكاد يتفق عليها الجميع.

فمن هي مريم هذه التي شغلت الدنيا كما نراها نحن اليوم؟

صنف يقف بذاته – متشامخًا – بين شتى صنوف النساء في الحياة، لا تتطاول فتاة سواء أكانت ملكة أم فرعونة أم كاهنة أم مدعية نبوة أو حتى إلوهية إلى مثل مكانتها، ولو أن امرأة ما وقفت في زمانها شامخة بمعطيات مادية وهبتها لها الحياة كأعظم عظيمات النساء وشغلت دنياها، فإنها حال موتها ينساها الزمان ولا يذكرها التاريخ إلا في سجلاته التي لا تكاد تشغل سوى المتخصصين.

إن مريم حالة تكاد تعدل كافة النساء، و(للرسول الخاتم) عنها أحاديث طوال أهمها قوله "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء سوى أربع: أسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد" ولهذا الحديث غير رواية وراوية ولكنه يكاد يكون متفق عليه.

لقد قال عنها تلميحًا "إن الأنبياء إخوة دينهم واحد وأمهاتهم شتى".

ومريم شغلت كافة الأديان، خاصة الإسلام، لأنها عندما جاء كانت قد اكتسبت مكانًا كهنوتيًا لدى مملكة الرومان – كلها – بشتى مذاهبها من يعقوبية وملكانية والأرثوذكسية والكاثولوكية وغيرها.

جاء الإسلام يصحح للناس مفاهيمهم عنها، لأنه في تصحيح مفاهيم مريم تصحيحًا كاملاً لهذه الديانة التي يسميها البعض مسيحية ويسميها البعض الآخر النصرانية، وهي ديانة شغلت الدنيا وشُغلت بها وهالني قول القديس أوغسطين عنها: "أؤمن بالمسيحية لأنها ديانة غير مفهومة"

لطالما طالبني المسيحيون أو النصارى أن أتنكر لعقلي حال بحثي في المسيحية – فبمَ أبحث؟ – وليكن كل ما يجيء إليّ منها مسلمات لا تخضع لعقل أو نقل، بل أؤمن بها على علاتها، فمن يحيا بلا عقل فليؤمن بهذه الديانة.

والمسيحيون يقدسون "مريم" بوصفها أم إلههم الرب يسوع الابن، حيث إن الرب الذي يسكن الأعالي أراد إنقاذ البشرية من التهلكة، ذلك لما اقترفه آدم وعقيدتهم تتلخص في الآتي: – آدم ارتكب الخطيئة الكبرى فطرده الرب من الجنة، ثم كتب على البشر من بعد الفداء، عندما يرتكبون الخطايا. (وكأن الأغنياء يفعلون ما يريدون ما داموا يدفعون رشاوى للآب) ثم أراد الرب أو بدا له أن يتوب على الذرية الخاطئة – لا لأنهم ارتكبوا الخطايا – بل لأنهم أبناء ينحدرون من صلب أب خاطئ – هو آدم – فكل مولود لآدم ينسب إليه خاطئ.

والسماء في حاجة – ماسة وملحة – لفداء لكل هؤلاء البشر فلا يصلح تقديم حيوان، والإنسان الذي يمكن اختياره لعمل الفداء هو الآخر يحتاج إلى من يفتدي عنه، فيكون الحل هو الإتيان بإنسان آخر لم يرتكب خطيئة ويقدم نفسه فداءً عن البشرية كلها.

وقلنا إنه لا يوجد من ينحدر من صلب آدم إلا وهو خاطئ؛ لأن آدم ارتكب الخطيئة، وجرت فيه دماؤه التي جرت في كل الذرية، فأرادت السماء تلافي ذلك، فعمدت إلى فتاة ونفثت فيها

من روح الـرب ليـأتي هـذا المسيح بـلا أب، فيخلو من دمـاء الخطيئة ويكون بلا خطيئة – قطعًا – وتفتدى بـه البشـرية كلـهـا ، ويكـون هو المخلص، لكنه قبل أن يُرفع إلى السماء ليجلس على يمين أبيه يضع أهـل الحـل والعقـد فـي الأرض مـن أولئـك الـذين يؤسسـون للمسيحية ويبنون الكنائس.

ثم تتطور الديانة مع الاختلاط برجال عقولهم متشبعة بالوثنية اليونانية القديمة، فيزعمون أن المسيح ابن الله المتجسد، وأن روح القدس تدخل في النطاق الإلهي ويسمون "مريم" العذراء قديسة بتول ثم يرفعونها مع الوقت إلى مراتب الآلهة ويتبركون بها.

ولقد أكد الكثيرون من نقاد المسيحية أن المسيح كنبي قد فشل تمامًا في دعوته، ولم يكد يؤمن به عشرة رجال مخلصون، حتى إن أقربهم إليه أنكره ثلاث مرات قبل صياح الديك. (راجع الأناجيل)

ثم تتطور المسيحية إلى ما تفرقت إليه من مذاهب ونحل... أما مريم في المسيحية فمكانتها عظيمة، ويكفيها أنها – فحسب – أم الرب أو ابن الرب لمن ينظر للأمور نظرة الجاهل السطحية، ومن تعمق فلديه المزيد، أما نحن فلسنا نود الدراسة – هنا – عن المسيحية فهذا ليس شأننا الآن، لكنا ذكرنا كل هذا لارتباطه الوثيق بمريم فيما بعد.

ونحن سنتحدث عنها قبل هذا كله، وهو عندنا الأهم. قلنا إن لنا ثلاثة مداخل هامة لدراسة مريم، وقلنا إن مصدرنا المقدس المعتمد عليه هو القرآن، ولكنه كنص مقدس موحى به للرسول الخاتم لم يحفل بتفاصيل حياتها، ولو احتج البعض فيرد الإسلاميون بأنه ليس كتاب تاريخ وحكايات، حتى إن حياة الرسول الخاتم نفسه لم يؤرخ لها القرآن إلا بمثل هذه الصورة في لمحات تكاد تكون أكثر خطفًا، ولولا أن حياته استثنائية

تشريعية للدين لما وجدنا تفصيلات عن حروبه ومغازيه وتشريعاته في القرآن.

زعم البعض أن أم مريم كان لديها بنت أخرى اسمها مريم، فلما جاءتها مريم هذه أسمت الأولى مريمنة، وكانوا في الناصرة - حيث ولدت يكثرون من التبرك باسم مريم.

وقال آخرون إنها - أي أم مريم - كانت عقيم فنذرت أن تهب مولودها لخدمة البيت، ولنذهب مع هذه الوعود قليلاً لنؤكد على شيء شدَّ ما ألححنا عليه في عدة دراسات، فالأم حسب هذا الرأي تنذر مولودها لخدمة البيت وعمارته، فيحتمل أن يحجبها هذا عنه ولن ترى مولودها ذكرًا كان أو أنثى.

فهو مولود قليل الفائدة لها دنيويًّا وربما دينيًّا، فقليل من الديانات التي تزعم أن المتعبد يشفع بعبادته لغيره.

إلا أننا نبحث هنا عن المرأة كامرأة، فالمرأة في بعض منحدرات اليأس من الحياة لا تكاد يشغلها أمر نتاج رحمها بقدر ما يشغلها أن ينتج هذا الرحم، فكثيرًا ما شاهدت بأم عينيّ نساءً ورجالاً يبتهلون إلى ربهم أن يرزقهم بمولود ولو كان مثل الكلب، فغاية أمرهم أنهم يحتاجون لمولود والمرأة قد لا يهمها أن تلد كلبًا أو رجلاً، بل المهم أن تكون ولودًا، والإسلام ذاته كآخر ديانات السماء الكبرى يقول "ولود سوداء خير من حسناء عقيم"، ولا شك في ذلك عند كافة الديانات المعروفة، إذن فهي تستنزل رحمات من السماء حتى توصف بأنها ولود ثم ليكن المولود من نصيب خدمة البيت أو لا يكون لا يهم، وسنعود لهذه النقطة بعد قليل. وأخبر القرآن أنها اسمتها "مريم" وقيل هي من النساء التي تحب حديث الرجال ولا تفجر - وقال القرآن إنها أعاذتها وذريتها من الشيطان الرجيم، والمتأمل لهذه الحكاية يجد أن الاتصال الإلهي

بين هذه المرأة "أم مريم" وربها في السماء اتصالاً مباشرًا وكأنها إذ تخاطب ربها بهذه المباشرة تخاطب من تعودت مخاطبته.

والحق إن المرأة أضعف مخلوق في هذا العالم، فليس أعز عليها من رحمها خاصة إن أنتج بعد عقم، وليس لديها ما تضمن به إنجاح هذا الإنتاج، فلو أن هذه المرأة كانت كافرة فهي تؤمن بمن يعطيها أسباب النجاح والعكس بالعكس، ولقد رأينا مع التوراتيين أن امرأة أيوب كفرت حتى يشفى زوجها، فكيف بالعقيم في مجتمع ليس للمرأة فيه من حقوق مدنية أو اجتماعية إن لم تكن ولودًا؟

والمتأمل لمجتمع الناصرة يجده مجتمعًا فقيرًا يعيش على الزراعة التي تحتاج إلى عمالة من بطون النساء تخرج.

لكن أمر أم مريم يجب ألا يشغلنا عن مهمتنا الرئيسية طويلاً وغاية أمرها أنها امرأة ككل النساء في الكون عقم رحمها يومًا فأرادت أن ينتج فنذرت الإنتاج لربها - وربما كان الإنتاج الأول فحسب - كالمتصدقين من محدثي النعم - فأجابها إلى ذلك، فوفَّت بالنذر غاية الوفاء، ولعل هذا هو سبب تقديس النصارى - الذين يزعمون أنهم ينتسبون للمسيح - بالنذور.

تربت مريم في كنف البيت المحرم المعظم عند اليهود، وقد اقترعوا لكفالتها فكان زكريا كافلها، ورووا عنها معجزات في كل هذه الفترة، ورأوا منها من التعبد والتبتل ما لم يكن يُرى وقتها من امرأة فعجبوا لها، فأفردوا لعبادتها ركنًا خاصًا في الهيكل، وعندهم يسمى (المحراب)، والمحراب هو بيت العبادة عند اليهود، فلا يفتالنا شك أن مريم إنما ولدت ونشأت وتعبدت لربها في ضوء تعاليم اليهود، وشروح التلمود والوصايا العشر والألواح والتوراة، وأقوال حكماء أورشليم، لكنها ربما جعلت قلبها أكثر

شفافية من هؤلاء ولم تقف عند حرفية نصوصهم وتحريفاتهم، ولعلها فطنت – ولو بسذاجتها – إلى ضعف ما يدعون إليه بأنهم شعب الله المختار، فلو كانوا كذلك ما رضخوا عبيدًا أو أحرارًا تحت حكم الاحتلال الروماني، ولا كانوا هم الأذلة في مصر، فلو كان ربهم يخصهم من دون سائر الناس لأخرج المصريين وجعلهم أعزة بالبلاد لا مطاردين غير مأسوف عليهم، وإنى لأؤمن تمامًا أن موسى خرج من مصر صفرًا من النفوس والإيمان عند شعب بني إسرائيل، فهم في الاجساد يزيدون عن النصف مليون نسمة، لكن المؤمنين موسى ويتبعه هارون بشفاعة موسى، ولعل مريم علمت أنه لو لم يكن موسى موجودًا معهم لما نجا من أحد، ولو كان هارون الذي تركهم يكفرون على عينه.

لعله إيمان بالفطرة ذلك الذي آمنت به مريم بنت عمران، وللمرأة إذا استقامت فطرتها – وقلما يكون – مع الإيمان شئونًا لا يتطاول إليها سوى الأنبياء، ولكن لعدالة السماء بفطرة المرأة لا تستقيم إلا مع القليلات، ولعل مريم منهن.

القاصي والداني يعلم أن أهم ما يميز مريم في الهيكل هو الانقطاع للعبادة، ولعل هذا الأمر كان شائعًا منذ القديم في كافة الحضارات، وخاصة في بني إسرائيل، فروي عن داود أنه كان ينقطع بعض الأيام للعبادة لا يشغله فيها شيء آخر مهما تعاظم، وكذا سائر الأنبياء، ومريم لم يكن يأخذها من عبادتها أمر ما، حتى قيامها بخدمة البيت هو من أمور عبادتها، وقلنا إن عبادتها مع استقامة فطرتها لم تكن كما يمكن أن نتخيله من عبادة بني إسرائيل، ولعل أهم ما يوضح لنا استقامة فطرة مريم أن أمها أعاذتها وذريتها، وهي ما تزال جنينًا في بطنها، فالرعاية الإلهية تشملها حتى قبل ميلادها، وقيل إن الشيطان لم يكن

ليتسلط عليها وعلى ابنها من دون بقية الخلق، لذا قلنا هي صنف فريد من النساء، ترجحهن جميعًا، إذ لو أتينا ببحار الأرض وجبالها ومحيطاتها عبادة من نساء ومع ذلك نصيب ولو قليل جدًا من تدخل الشيطان، ما رجح حفنة رمال من عمل الخير لا يتخللها عمل شيطان، ولهذا كان نقاؤها الفطري الذي ما شابهه غيرها.

ثم علمت مريم أن للنساء خارج الهيكل حالاً غير حالها، وأن الحياة خارج الهيكل على غير ما تراه داخله، فليست كل النساء متبتلات مثلها، وليست كل النساء ينذرن العفة، على ما علا في أفق مريم من أمر خطبتها ليوسف النجار، وكونه لم يقدم الدليل الدامغ على أنه من نسل داود وما تقوّل في هذا رجال دين اليهودية، فمريم نذرت البتولية قبل عيسى وإلا فإن كل ما جاءت به النصرانية أضاليل، وكون يسوع من البشر أو وجد أصلاً أكذوبة كبرى، ولعله وهم صار أسطورة ثم تمثلها البعض حقيقة وألصقوها بالتاريخ ونشأت عنها عقيدة، جاء الإسلام يمحصها لقوم لم يكن لهم أن يدعووا أن أحدًا يعاصر الرسول الخاتم يقول إنه رأى يسوعًا.

وكان تصورهم أنه إله مما يعضد هذا الزعم؛ لأن الإله لا ينبغي أن يُرى، وهم بهذا يهربون من تجديف اليهود الذين قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فلما صعقوا بقولهم هذا كان من أمر المسيحية ما كان، ولعمري إن المسيح لم يرضخ لألوهية أحد إلا بعد رفعه حتى قال بعضهم كان نبيًا لله أو ابن الله ثم صعد للسماء.

مريم كانت منذورة لخدمة البيت، ولا يصح أن نقول إن نذرها كان مؤقتًا، بل دائم طوال عمرها ولعل المخطوبة ليوسف هذه هي مريمنة الكبرى، ولعل مريمنة هذه لما رأت من مريم ما رأت انزوت وتفرغ التاريخ لمريم أم المسيح.

لكن أنَّى لنا التوفيق بين هذين القولين؟ إن أمها كانت عقيم

ونذرت حملها لخدمة البيت حتى تلد، وأن لها أختًا (مريمنة) هي خطيبة يوسف النجار حقا؟!

لعلنا نستطيع القول إن مريمنة هي أختها من والدها فحسب، أما أم مريم العذراء فكانت عقيم، واليهود كانوا يتزوجون غير امرأة، فهم لا يقدرون لها حقوقًا.

نحن لا نعمد إلى تقريب الرؤى بين المسيحية والإسلام، فمريم لا تختلف عليها الديانات. (نقول الديانات لا أشباهها) قلنا إن مريم نمط من النساء لا تعدله كل النساء ولو اجتمعن، فهي المقدر لها هذه المكانة قبل ميلادها بكثير، ودليلنا على ذلك أنه ليست كل امرأة تتبتل وتتعبد تصل إلى هذه الخصوصية المختارة، ولا يجوز للبعض أن يقول إنما هي وصلت لهذا نظرًا لغمرها بالجو الذي كانت فيه، فهي في أورشليم القدس في بيت المقدس حيث عبادة بني إسرائيل شعب الله، فلو كان الأمر كذلك ولو فرضنا أنه لا توجد روحانية أعلى في ديانة أخرى، لما استعظم اليهود منها ما جاءت به.

حقًا إن الله يختص برحمته من يشاء، ولقد علمنا أن كثيرين من الحياة قد انقطعوا منذ صغرهم للعبادة، وما فتأوا يتعبدون إلا أن القليل منهم يستمرون، ولكننا لم نسمع عن رجل نذر نفسه للعبادة والمعرفة قد توصل عبر مجاهداته إلى درجة النبوة، ولا يروعنا بعض ما قاله بعض متصوفة المسلمين من أنهم وقفوا بيم ما يزال الأنبياء على شاطئه، وهم قد خاضوه، فإن هذه تخرصات تخصهم، وما أنزلت السماء بها من سلطان، لكننا لا نجدهم يشغلون التاريخ كثيرًا، والاهتمام بهم لا يرقى لمرتبة الأنبياء الواقفين بشاطئ بحر معرفتهم.

فمريم ليس لها فضل في عبادتها، بل هي مدفوعة إلى العبادة،

ثم إنها لا تستطيع إلا أن تفعل.

لكن لا بد وأن نلحظ أنها لم تدخل المسجد لتتعبد، بل لتخدم زواره كما نذرت أمها، ولعل البعض يكتنز من ذلك تسلط الآباء على الأبناء دينيًا، فيوجهونهم كيف شاءوا، وجاء عنت الأبناء للأنبياء لحفظ عهود الآباء، وما قد رسبه الآباء في قوارير الأبناء، كما قالوا ألفنا آباءنا لها عابدين! لكن مريم تزايدت عن أمر الخدمة بالعبادة، ثم تطاولت بعبادتها كثيرًا، وقدمنا منذ قليل أنها لم تكن تتعبد إلا بالفطرة التي استقامت لمريم، وقد يعتورنا وهم عظيم ونحن نمحص تلك الفترة من حياة مريم بأنها كانت ستختفي من دفاتر التاريخ لولا حادثها الأعظم بميلاد المسيح.

فليست عبادتها تحفظها إذن، وإلا لحفظ لنا التاريخ من أسماء الأولياء والمؤمنين ما لا يستطيع تدوينه، فلقد أغفل عن ذكر الكثيرين من الأنبياء، فكيف به يذكر كافة المؤمنين؟ ولعل مريم حتى هذه اللحظات تكون ناقصة الإيمان غير مكتملة لأركانه، فهي للآن لم تُبتل بابتلاء تثبت أمامه، وقد قيل إن الإيمان بقدر الثبات عند الابتلاء ولقد ابتلى الله أقوامًا من قبل في عرض صحرائهم بنهر وأمرهم نبيهم بألا يشربوا منه، وإلا فهو خارج عن الإيمان مفارق للتقوى.

ومريم حتى هذه اللحظة لا تزيد عن كونها وفاء نذر أمها في خدمة بيت ربها، ولعل هناك الكثيرات غيرها قد انقطعن للعبادة والتبتل والخدمة.

وإنه لا إيمان بلا اختبار، كما أن للإيمان مراتب كثيرة، وقلنا إن إبراهيم سعى للهداية بقدر ما سعت إليه الهداية، ولكنه أراد أن يرى كيف يحيي الله الموتى، فلما أن اطمأن قلبه، ابتلاه الله بقتل ولده (الذي قالوا هو إسماعيل أو اسحاق) وإن كان إسماعيل راجحًا.

فكل نبي مر في حياته الإيمانية بابتلاءات كبرى، لا جدال وعسى أن يكون في أمر يعقوب وإبراهيم ما يزيد هذا الغموض توضيحًا، فالمتقصي لحياة كافة المصلحين في التاريخ يرى تاريخهم تاريخ كفاح بجوار الإيمان.

ومريم للآن لم نسمع ولم نر أنها تعرضت لصنف واحد من أصناف التحدي تثبت لها، فهي إذن فتاة طبيعية، لها محراب تتعبد فيه، ولها زوج خالة قد تعهدها برعايته، وكلما دخل عليها محرابها يجد عندها الرزق متدفقًا، فيتعجب، فتجيب الإجابة التي لا يجيبها رهبان اليهود ولا أحبارهم بأن الرزق من عند الله، الذي يرزق من يشاء بغير حساب، وقيل هو رزق ساقه الله إليها لتحيا عليه، وقيل بل هو صنف مغاير لما تعودوه، فقد وجدوا عندها فاكهة الصيف في الشتاء والعكس.

والحق إن اليهود قد يكونون مهوسين بفكرة الربوبية، فلقد يحسبون أن الرب ينزل من السماء لمحرابها حتى يرعاها بنفسه، وقد يتفرغ لها، مما جعلهم بعد يقولون إنه إنما كان يغشاها حتى ولدت منه المسيح ابنها، ولكن الرب حال ذلك إنما أخطأ فزنا فترك وليدها في الأرض يتخبط.

اختلفوا في الفترة الزمنية التي عاشتها مريم قبل هذه الصاخة الكبرى في حياتها، فقد افترضوا لها أعمارًا متضاربة بعضها يزيد عن العشرة، لكنه لا يصل إلى عشرين سنة عاشتها مريم قبل هذه الطامة.

ثم إننا علينا أن ننتظر هذه الفتاة المنقطعة للعبادة في محرابها لكونها فتاة بلغت مبلغ النساء، أي بدأت تحيض، والحيض هو للجماع وللقاء الجنسي أذى، وللعبادة محبط، فلا تصلي المرأة ولا تصوم في الحيض، فلو أن مريم تحيض فلا بد أنها ستفارق هذه العبادة أيامًا حتى تتطهر ثم تعود لما ألفته، لكنهم قالوا: إن مريم

لم تنقطع لحظة عن العبادة، فلقد امتلكت عليها العبادة كل كيانها الناسوتي، ولقد يتفق هذا مع بعض ما عزاه بعض الإسلاميين إلى الرسول الخاتم من قوله: إنها وفاطمة بنت محمد لم يحيضا قط فمريم حفظها الله عن الحيض إكرامًا ليسوع، وفاطمة حفظها الله إكرامًا لرسوله، وقد ألمحنا في حديثنا عن حواء أن الحيض للنساء أمر عارض من أساسه، وإنه لربما كان عقابًا للمرأة عقب خروجها من الجنة مع عشر ابتلاءات أخرى ابتلاها الله بها، وكذا الحية، وآدم عقب الخروج من الطاعة والولوج في معصية الله، ذكرناها آنفًا.

فالأصل في الإنسان أن يعبد الله، وإذا انقطع فإنه أمر طارئ، وكذا مريم شاء الله لها ألا تحيض، وقد قلنا منذ قليل إن أمها أعاذتها وذريتها من الشيطان الرجيم. فهي من هذه الزاوية ليست فتاة ككل الفتيات وهذه هي الخصوصية التي لم تنازعها فيها فتاة أخرى سوى ما كان من أمر فاطمة حسب ما قيل. ولا يهمنا كثيرًا أن يكون سنها عشر سنوات أو عشرين سنة أو أكثر من ذلك حال نزول روح القدس إليها.

وصلنا إلى الصاخة في حياة مريم، أخبرتنا الكتب المقدسة أن مريم كانت في محرابها فإذا برجل تبدو عليه علامات الإيمان والتقوى يعرض لها في المحراب، فتستعيذ منه بتقواه، فيخبرها بأنه رسول ربها ليهب لها غلامًا ذكيًا (ولعل ذكاته يعني نضج العقل واكتمال المعرفة ورجاحة الوجدان).

بالقطع لم تسمع مريم عن مثل ذلك من قبل أبدًا؛ عذراء تلد دون جماع أو لقاح، أمر لم يسجله التاريخ ولا تعهده عندها الفطرة، فهو أمر مشكوك فيه، على أننا لا بد ونحن نسجل لها هذا الحوار أن نثبت شيئًا هامًا لا يفوتنا إثباته، وهو أن الملاك قال لها: إني رسول

ربكِ لأهب لكِ غلامًا. (القرآن مريم ١٩) فإنما يكون ذلك بأمر الله وتقديره، كما يتضح من كلام المَلَك، وهو إنما يُحدِّث فتاة تؤمن بالله غاية ما يكون من مثلها الإيمان.

فهل كفرت مريم بهذا الجزوع منها، أم أنها لم تلتفت لهذه العبارة من الملك حتى يكررها وينبئها أن أمر الله عليه هيِّن وأنه قد خلقها من قبل ولم تكُ شيئًا؟.

لا نلمح في ردها كفرًا، بل إن علماء النفس يقولون إن الإنسان عندما يُصدم في أمر ما فإنه بدءًا لا يصدقه، ثم يكذبه، ثم يبدأ في تصديقه ثم يتعايش معه كونه حقيقة راسخة، وقالوا إن المرور بهذه المراحل من فعل الأيام، ولذا قالوا إن الأيام خير دواء لكل داء.

هي فتاة تتعبد وقد فضلها الله بفضل عبادتها – ولو في خلدها – بأن منع عنها الحيض، فلِمَ هذا الابتلاء الذي لا يعدله في الدهر ابتلاء مثله؟

أهذه هي رحمة الله؟

وليس لنا أن نتصور أن مريم كان يمكنها أن تقبله أو ترفضه، كما كان من أمر إبراهيم حال تأويله لرؤياه بذبح ولده مثلاً – بل كانت مضطرة إلى ذلك ومدفوعة دفعًا إليه، وليس هناك لمح اختيار، وهي قطعًا إن خُيِّرت سترفض، ولو كان بابًا للجنة مفتوحًا بعد قبولها والملك يقول إنما أنا رسول ربِّك لأهب، ولن تغوص خلف مدلول الكلمة الأخيرة لغويًا فنفهم أن المعنى فيها أنه جاء ليهب لا جدال ولا تدخل لكِ في الأمر.

مريم لم تكن إذن مكلفة بأمر تأتيه، فإن فعلته فهي مؤمنة، وإن خالفت فهي عاصية تستحق العذاب، بل الأمر غير ذلك فهو ليس تكليف لها، وما جاءها الملك يستأذنها بل ليخبرها والبون شاسع.

(فهل لنا أن نتخيل أنها حملته ولما تدري ما هذا الذي في بطنها، ولعها إن فُعل بها ذلك جزعت إلى الأطباء فلما يجدوه جنينًا يقتلوهما)

فلما حملته - كرهًا على كره - بعد أن نفخ فيها وقد استوثقت من الأمر، انتبذت من دونهم مكانًا شرقيًا قصيًا، وقد تعددت الروايات بنفخ الملك فيها، فقيل غشيها، وقيل نفخ في فمها، وقيل نفخ في فرجها وقيل نفخ في جيبها... إلخ.

كما قيل حملته مدة عادية، وقيل بل شهرًا، وقيل بل لحظة، وقيل ما إن حملته حتى وضعته.

ولكن المشتغلين بالأديان يحلو لهم أن يذكروا أن أليصابات أم يحيي قالت لمريم يومًا: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك!

كيف؟ وقد انتبذت مريم منهم مكانًا قصيًا، ولا بد أن أحدًا لم يكن يدري أنها حامل وإلا لما عجبوا لولادتها؟ أم أن أليصابات علمت وأخفت عن الجميع؟ لا نظن مطلقًا أنها تكتم مثل هذا السر، فكما قلنا عند وقوفنا بأبواب امرأة العزيز أن المرأة - عند المرأة - متهمة حتى تثبت براءتها ولما تتضح معالم الجريمة، فما بالنا والجريمة بالحمل ناطقة، فهل تكتمها أليصابات وبعد طول عقم لرحمها ترى أن وليدها أقل شأنًا من هذا المجهول الأب؟ بل نحن نرى أن أليصابات كانت ترى في ابنها أنه أعظم الورى، ولن تعترف بابن مريم مطلقًا.

مريم لما أجاءها المخاض إلى جزع النخلة لم تسلم الأمر لربها، ولم تذعن لمشيئته، ولم تحميها عبادتها، بل غلبت عليها فطرتها، فهي امرأة - عادية - قبل كل شيء.

ولا يظن البعض أن مريم تعبت للحمل لمجرد كونه حملاً، بل لكيفية هذا الحمل، وصعوبة تقديمه إلى قومها، ولنرتقي بالقول

قليلاً – إن مريم ينتابها الآن شيئان قليلهما عند غيرها كثير، الأول كونها بكرًا وحاملاً، الحمل للأبكار – كما تعهد – عظيم المتاعب وكثيرها، والأمر الآخر أنها لا تستطيع الإفصاح عن هذا التعب وذلك الحمل، فلو أن المرض في ذاته مضني، فإن الإبانة عنه تخففه ولو قليل.

لكنها تتألم ومفروض عليها أن تكتم آلامها ولا تبوح بسرها، لكنها لن تخرج عن الآلام إلى الاستغاثة بأمها على الأقل – التي قد نسيها التاريخ. قالوا إن الله كان يحفظها ويرعاها حتى إنها لما جاءت إلى جذع النخلة أمرها بهز النخلة فتساقط عليها الرطب، وهو رطب لين ولعمري إنها حامل مكظومة، لا تستطيع هز نخلٍ لكنها الرعاية التي سببت هزها حتى تساقط عليها.

ومريم إذ تلده، وتنظر إليه، ربما تكون رؤيتها إياه مما قد يخفف عنها قليلاً.

فها هي قد ولدت ولدًا – ذكرًا – كما أخبرها الملاك فماذا تفعل بعد الآن، وأين هي الرعاية الإلهية؟ وإلى أين تذهب به؟ وقد استحال عليها العودُ إلى المحراب، كما استحال نسبه إليها وهو نتاج رحمها، ولو أنها أتت به من الزنا لربما تخلت عنه مغالبة بذلك فطرة مستقيمة، لكن عذرها ساعتئذٍ أن أباه تخلى عنه هو الآخر.

لكن هذا الرضيع – خاصة – لا أب له، فكيف تتركه؟ يقينًا تعلم مريم عن الأمومة الكثير، على الأقل من خلال ملاحظتها للأمهات وبفطرتها التي عوّلنا على استقامتها طويلاً وما زلنا.

ولعمري إن التجربة التي مرت بها مريم يمكننا أن نجزئها إلى أجزاء:

الجزء الأول: وهو كما تعود المشتغلون بالأديان جزء ناسوتي –

عضـوي – يعـود إلى فطرتهـا وأصـل خلقتهـا وطبيعتهـا كـأنثى وكـامرأة تحيـا فـي مجتمـع لـه قيمـه، وتقاليـده وعاداتـه وهـذه النتاجات من رحمها غير متوائمة مع هذا كله.

الجزء الآخر: جزء إلهي كهنوتي، فلم تتصل من قبل امـرأة بربهـا هذا الاتصال أبدًا، فلو ذكرنا أم موسى فـي موقف مشابه فإن الأمـر بعيد، فأم موسى كان همها حمايته وتخبئته مـن مريدي قتلـه، ولم تكن تتوارى من الحمل ولو أن الحمـل أنتج أنثـى ما تـوارت بهـا أبدًا، ثم إنها تتوارى عن صنف محدود من الناس وهم جند فرعون!

لكـن مـريم منـذ البدايـة علـى اتصـال بربهـا بعبادتهـا ثـم هـذه التجربـة الـتي مـا كنـا نظـن أن بشـرًا قـد تـدخل فـي هـذه العمليـة الإنتاجيـة سـواء أكـان التـدخل بالفعـل أم حتـى بمجـرد العلـم بهـذا كله، فلو أننا رحنا نوضح العالمين بهذا الأمر لرأيناهم كما يلي:

١ - الله الذي قدَّر وأمر.

٢ - الملاك وهو الرسول.

٣ - مريم المفعول بها.

ولعمري إن هذه العملية لا تستعصـي علـى كونهـا معجـزة بشـرية يؤتاهـا أولـو القـرب مـن الله، فلقـد مشـى موسـى بقومـه علـى الماء، وقذف إبراهيم – بالمنجنيق وكـان ذلك سببًا فـي اختراعه لامتناعهم عن القـرب مـن النـار – ولم يحـترق سـوى القيـود، وهـذه الخـوارق لم يكـن يكذبها اليهود، بل كـانت سببًا فـي إيمـان الكـثيرين، حتـى الذين لم يشاهدوها لم يصدقوها.

فمـا بـال الأمـر يختفـي كـل هـذا الخفـاء، ولا يمكـن بحـالٍ أن تكن أليصابات زوج زكـريا عالمة به، مصداقًا لرواية بعضهم أن مـا فـي بطنها يسجد لما فـي بطن مـريم فلو علمـت ذلك لأذاعتـه، ولسنا

نرى أن تكتمه إن كانت المرأة كتوم عن زكريا نفسه ثم ينقله إلى الكهنة، حتى يتفشى ولو علموا به قبل الميلاد لما انزعجوا عند الميلاد – كما قدمنا – نخلص من ذلك إلى أن البشرية جميعها جهلت هذا الأمر سوى مريم، مريم ليست من الملائكة حتى تتسامر معهم إذ لم تجد من تفرغ له ما بجوفها من مكابسات تكبتها داخل الأحشاء.

والله قد أراد لها ذلك، وهو يحفظها، والملائكة ليس عندها الخصائص البشرية، وليس لنا أن ندعي أنهم مثل البشر منهم المرأة والرجل أي الأنثى والذكر، فهم قوم نورانيون مسيرون، ما يتنزلون إلا بأمر الله، فليسوا بمقاييس مريم ممن تحدثُهم، فهل تناجي إلا ربها؟ أين ربها؟ القدماء يزعمون أن الله يسكن في السماء، فهل حدَّثها من السماء؟ قالوا ذلك، كما أوحى وكلم غيرها من قبل، واليهود إذ يدعون إنه كان يغشاها في الأرض فهل صعدت إليه في السماء فبذا باتت من المقدسات القدس الإلهي؟

لكن مريم – كما قلنا – انتقلت من طور بشري عادي جداً إلى طور آخر بشكل بسيط تتفهمه كل الأديان وكافة الحضارات، لكن بكيفية غير معهودة حتى صارت مضرب المثل، مهبط العبر.

قلنا إننا سنقصر الحديث عنها من مداخل محدودة، فالآن نلتقي مع مدخل الأمومة.

كل ما قالته البشرية عن مريم شيئًا غير جديد، والملحوظ أن هذا الأمر لم يقتصر على حديث البشر، بل تدخل الخطاب الإلهي – كما قلنا من قبل – لتسجيل الوقائع كما حدثت.

وكل البشر يقولون على مريم ما يعلمون وما لا يعلمون، فكلٌ يقول حسب هواه وعقيدته، ونظرته للمرأة خصوصًا، ثم نظرته للكيفية التي رويت بها الأحداث فيما بعد.

ونحن نرى أننا لا نمتلك فصل الخطاب في هذا الأمر الذي سيظل محل جدال ليوم ينبثون، إذا أردنا أن ندخل الأمر من ذلك المدخل ونحن إذ نتفق مع كافة المرويات في كل الثنائيات في معطيات نعرج منها إلى معطيات مريم الخاصة بها، حتى نرى ما يرتد من هذه المعطيات وما يثبت.

الأمومة في حياة النساء، وعند العقيمات منهن كالصحة فوق رءوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى.

لكن التاريخ أفرد لنا صفحات طوال عن حالات عقم عظيمة. لعل أعظمها عقم سارة – وذكرناها آنفا – وكذا عقم أليصابات زوج زكريا عليه السلام، كافل مريم فهذه امرأة عقمت عن الإنجاب، وعندها أسباب ذلك، والمتأمل لهذه الحالات يخلص منها بعبر شتى، لكن لعلنا نهتم هنا بعقم أليصابات فحسب، فزكريا يريد ولدًا تارة ليرثه ويرث من آل يعقوب (النبوة) كما جاء بإحدى سور القرآن (مريم) وتارة يحتاج الولد عندما يرى إمكان ذلك حين دخل على مريم فرأى عندها الرزق موفورًا فقالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، علم زكريا أن أمر إنجابه – عند الله – لا يتعلق بالأسباب فقد اشتعل رأسه شيبًا وباتت امرأته عقيمًا (آل عمران) ولعل زكريا كان يظن أن أبوته ستأتي من عند الله حال قدرته على نكاح امرأة أخرى، ولعله حتى هذا الحين كان ينتظر أمر الله أن يطلقها أو أن يتزوج غيرها، لذلك نراه في المشهد الأخير من القرآن يُخبَّر بأن الله سيصلح له زوجه هذه ويعطيه الذرية التي يبتغيها ولعل هذا هو روعة التكامل القصصي في القرآن (الأنبياء)، لا التكرار الذي يسميه البعض من غير الحاذقين هناك. هذه الحال تستوقفنا لأننا نريد إثبات السعي خلف الأمومة أو الأبوة، فالغريزة تقتضي التعاقب ولولا إقران ذلك

بالشهوات – كما قلنا – ربما لتخففت البشرية بمثل هذا كله.

بل إن مريم لم تكن أمًّا فهي لم تشته الأمومة، وهذا زكريا يُريد ولدًا ليرث النبوة في آل إسرائيل، تشغله أمور دينه عن أمور الغرائز، لكن أم مريم كانت حالتها تختلف فهي تقول أعطوني إنتاجًا لرحمي، وخذوا مني كل ما عدا ذلك.

هل كانت مريم تتمنى الأمومة وتسعى إليها سعيًا؟ علمنا أنها كانت مكلفة بخدمة البيت الذي يتعبدون فيه، ولعلها نذرت العفة، ورجحنا أنها لم تكن مخطوبة لأحد، وأن اتهام يوسف النجار باطل كله. لكن رغم ذلك كله فمريم لم تكن ترغب في الأمومة، ولعلنا نُساقُ هنا للقول بأن الأمومة، على ما اعتراها من أوهام البشرية وأباطيلها الكثيرة قد تصور البعض أنها غريزة تولد الأنثى وهي تحملها بين جنباتها لكن الحق الذي لا بد للبشرية أن تدركه اليوم هو أن الأمومة ثقافة وليست غريزة تولد بها الأنثى، بل تكتسبها. وإنما يكون الحفاظ على الأبناء بمقدار الجهد في الإتيان بهم، ولن نتزحزح عن موضوعنا إزاء مريم للإفاضة في هذا الجب كثيرًا، لكنا سنقول أخيرًا، الأمومة عند النساء هي الرغبة الجنسية المستترة والمقبول إعلانها، فالفتاة لا ينبغي لها أن تطلب النكاح لكنها تؤكد رغبتها في أمومتها، ويقينًا تعلم أن الأمومة سبيلها النكاح، والأم كالرياض، والعقيم كالصحراء، ولن تستوي الصحراء بالحديقة الغناء.

مريم لم تطلب الأمومة قط، قالوا إنها قد نذرت العفة فكيف تفكر في الجنس الذي هو أساسها، ولن تستطيع امرأة أن تقاوم غريزة إن ذهب البعض إلى أن الأمومة غريزة، فإن نذرت ألا تنكح فهذه مقاومة غريزة والأخرى تابعة لها، فلولا أنها ثقافة ما تأتى لأنثى نذر العفة مطلقًا، ومن يقل بغير ذلك فهو إما دعّي أو يريد أن

يغيِّر خلق الله للأنثى.

عند بعض الملحدين – ويحق لنا ذكرهم لأنهم خلق مثلنا، ولهم عقول، ارتضى ربنا الذي خلقهم وجودهم، فلنتفهم بعض ما يقولون – إن مريم كانت تشتهي الرجال، ذلك لجهلهم الاتصال الروحاني بين الإنسان وأبواب السماء، هذا الاتصال الذي يجعل الطريق أمام الشهوات موصودًا.

يقولون إن مريم امرأة تشتهي وتبتغي ككل النساء، وهذا الأمر مؤكد عندهم، لكن التاريخ المسيحي كله يشهد بوجود رهبانية وتبتل كثير جدًا جدًا، لِمَ لا تكون مريم على رأسهم؟!

المسيحيون يستندون – أدركوا أو لم يدركوا – إلى عذرية المسيح وحصوريته وكذا يحيى لإثبات بتولية العذراء مريم.

توقفت لحظات أمام لوحة الرسام العالمي ليوناردو دافنشي وهي لوحة القديسة آن مع مريم ويسوع وحمل صغير يرعاه أو لعله يلعب به أو معه.

وإلى نظرات مريم لابنها تطاولت كثيرًا داخل اللوحة، لكنني بعد حين أعملت فكري في أمر هذه الأمومة، فهل هي حقيقة؟ أي هل مريم هي أمه، بمعنى أن سبب وجوده وتربيته تعود إليها، وهي صاحبة الفضل عليه في تنشئته ورعايته؟

فكرت طويلاً وطويلاً.

قال العلماء بشتى تخصصاتهم وخاصة علماء الإنسانيات عن الأمومة بعد إحداث الأنثى لها داخل مجتمع محافظ يرعاها ويحبذها، لا بد وأن تفيض بعده أشياء أهمها ما يلي:

١ - الإنجاب نفسه عن طريق حمل طويل الليالي عظيم المشاق، وقد يكون حملاً هينًا لا تصاحبه آلام كثيرة.

٢ - حنين قد يصاحب فترة الرضاعة التي لا بد منها، وإن لم يكن رضاع فهذا أمر شاق (ولقد رأينا أن الله قد حرَّم على موسى المراضع حتى أعادوه إلى أمه فقرت عينًا)

٣ - آلام لا يحتملها سوى الإناث حال الوضع، وقد فسر الطب حديثًا انقباضات وانبساطات جدار الرحم وإفرازات كثيرة تساعد في سهوله عملية الولادة! وهي موفورة في كتب الطب يطالعها من يشاء.

٤ - مشاعر حب بلا علة إلا لكونه وليدها أو وليدتها.

٥ - رعاية وتوفر على التربية، وغرس بعض القيم في هذا الابن، حتى قال بعض المصلحين: أعطني أمهات متعلمات أعطيك مجتمعًا متقدمًا.

٦ - وقبل كل هذا رغبة حقيقية في الأمومة وتقبل نوع الجنين.

هذه بعض صفات الأمومة ولوازمها وغيرها كثير وكثير لكن هل توافر أي شيء من هذا كله عند مريم؟ نقطع بالنفي، فمريم يعييها الحمل بالشكل البيولوجي العضوي، ولم تُعلم وليدها شيئًا، أليس هو الذي أذاع للبشرية – ولقومها خاصة – رسالته وهو في المهد قائلاً: إني عبد الله ورسوله أتاني الكتاب وجعلني نبيًا وأمرني بالصلاة والزكاة وبرًا بأمي؟

في القرآن الكريم كلمة على لسان مريم لم نر لوقعها مثيلاً ولست أرى الآن كلمة أخرى تضاهيها في حسن التعبير وإحاطته بكل اللغات حول مريم في موقفها هذا، تقول مريم ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ لعلها لم تكن تصدق كل ما مر بها من نزول الملك وحملها وإخبارها عن ولادتها لولد زكي، يكون له شأن هو المسيا في كتابات اليهود، وهو المسيح المنتظر.

ربما كان هذا كله فرح أو ابتهالات من الجن أو امتحان لئلا تجزع فعليها الصبر والامتثال، أما وأصبح الأمر حقيقة لا ريب فيها، فالموت أهون مما هي فيه الآن! أأنا حامل حقاً؟ وهذا المتقلب في أحشائي غلام؟ أسألد ولداً؟ كيف يكون هذا؟

هل هز مريم الحرمان الجسدي قبل هذه الولادة؟ هل اشتاقت لرجل لتقاسمه الشهوة واللذة واحتاجت لرجل لا لشهوة، ولكن ليكون أبًا لهذا المتحرك كأنه الجبل الراسخ أو البحار التي تموج داخلها فتزلزلها زلزالاً؟

إن الذي يحاول الانتحار لا بد قد وصل إلى نهاية اليأس، وتخطى هذه المراحل حتى قد فات عليه إمكانية العودة لمواطن الأمل.

ومريم كانت ترى نفسها قد فارقت هذا كله بكثير، فهي لا تتمنى الموت وحسب، بل أرادت أن تمح كل آثارها حتى عبادتها وتبتلها، كل هذا ينمحي كأن لم يكن، وغيرها طلب ذلك، الكثيرون الذين قالوا: ليتنا نخرج من الحياة كفافاً لا علينا ولا لنا!

لكن البون هنا شاسع، فهؤلاء يريدون أن يحاسبوا يوم القيامة محاسبة الأطفال أو مسلوبي الحلوم.

أما مريم فأمرها متباين.

قالت: يا ليتني متُ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا، فهل ينساها الناس وأهلها، أم ينساها ربها؟ هل تخشى الناس أكثر مما تخشى الله؟

كل همسة وكل حركة بأمر الله، وهي تعلم أو تدرك أن ما هي فيه هذا لا يمكن أن يأتيها إلا بقدرة الله وحده، فهل ظنت أن الله قد تخلى عنها؟ هل كانت هاجر أكثر منها ثباتًا وهي ترى الموت وتقول لإبراهيم: آلله أمرك بهذا؟ فأجاب: نعم. قالت: إذن فلن يضيعنا! لكن نقول إن الفضيحة شيء والموت شيء آخر، ثم إن

مسببات الحياة البيولوجية أقل شأنًا من مسببات الحمل والإنجاب، هل نقارن طعام وشراب بحمل ومخاض؟

ثمة سؤال يلح علينا منذ بداية المبحث وهو يطاردنا وما زلنا نرجئه للآن، لكن لنفسح له الآن المكان ونهيئ له التواجد بين تلك الأسطر.

دعونا نتساءل: هل كان الحال سيتغير لو كان المولود بنتًا ولم يكن ذكرًا؟ لو جاءت مريم لأمها ذكرًا، فهل كان الحال سيصبح كما كان؟ لقد قالت امرأة عمران! ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾. (انظر القرآن آل عمران)

هل كانت تشك في علم الله بأنوثتها؟ نظن أن لا. بل كانت تظن أن أنوثة وليدها تقل أهمية إزاء النذر، كأن البيت المعمور بالمصلين والمتدينين يريدون شابًّا للخدمة لا فتاة!

ولعها ترددت في وفائها بالنذر؛ لأنها لم تجدها مناسبة وهي الفتاة!

لهذا تقول: رب إني وضعتها أنثى، فهل ستقبل هذا النذر، أم أنتظر حملاً آخر عساه يكون ولدًا؟

أما مريم فلو كان المولود بنتًا لما كان هناك عظيم أهمية لشيء عند البعض، لكنا نقول: إن الأمر واحد حال كون المولود ذكرًا أو أنثى! لأن الغاية هي الإنجاب دون وجود أب لهذا المولود، على أننا يجب أن نفطن لحديث الملك إذ يقول: لأهب لك غلامًا!

فنوعية المولود قدَّرها الله، فلو اختلفت لفقدت مريم آخر خيط - ولو في اللاوعي - يربطها بربها، فالسماء ساعتئذ تكون كاذبة، ولسنا نتصورها في هذه الحال.

مريم تكتم الصيحات داخلها، يزداد الحمل أوارًا مع تقدمه،

حتى تجزع من ربها إلى ربها وهي تقول: يا ليتني مت قبل هذا!

لكن مثيلات كثيرات مشابهات لها قد قتلن أنفسهن، فلِمَ لم تحاول أن تفعل؟

إن تمني الموت هو الموت، فلقد يموت المرء أو تموت حوله كل الأشياء، فكلاهما واحد.

لكن أليس ربها الذي يحيي ويميت؟ فهل تغالبه على أمره؟

إنها لن تستطيع أن تدفع عن نفسها مجرد الحمل الذي ربما تستطيع كل أنثى منعه إن أرادت، فهل تستطيع إخراج الروح التي لا تعلم عنها أي شيء؟ ولا يغر البعض أن إزهاق الروح يتم بإفساد الحاوي – الجسد – فإن ذلك يتم عند الاعتداء على الغير، وكم من جسد فاسدة وبه الروح، إن مسألة قتلها بنفسها هذه مرفوضة؛ لأنها لن تستطيع، كما أن ذلك ربما كان مصروفًا عنها، فهي تمنت الموت وسلبت القدرة على إتلاف نفسها وتمنت لو تموت بيد ربها، فإذن لن يحدث الانتحار أبدًا.

كنا قد قلنا إننا سنتحدث هنا عن الأمومة عند مريم فهل تحدثنا عنها الآن؟

دعوني فقط أقول: إن أمر كفالة ابنها ليس من شأنها فهي لن تربيه أو لن تفكر في تربيته، فهذا شأن يحتاج إلى يقظة من الأم وإدراك منها، وهي عن كل هذا مغيبَّة.

ذهب البعض إلى أنها قد حملته خفيفًا ووضعته خفيفًا، ولا ريب في الأخيرة، لأنه لم يثبت أن أحدًا قد ساعدها في الولادة، فلولا أنه سهل لما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، إذن هي ولادة سهلة ميسرة.

مريم لم تمارس الجنس، وصرفت مباشرة إلى نتاج الجماع الجسدي دون المرور به.

قد يقول بعضهم وهم من المتهوسين بها: أن أحدًا من معاصريها لم يكن كفئًا لها كي يتزوجها.

هل لا بد من هذه الكفاءة دومًا، إذن إليكم هذه الأمثلة:

١ - نوح وهو المؤمن وهو الرسول العظيم تزوج من امرأة أول ما كفرت كفرت به وبدعوته حتى أهلكت بذلك.

٢ - إبراهيم (أبو الأنبياء) تزوج بجارية سارة (هاجر) ولم تكن كفئًا عند بعضهم أن تحل له سيور حذائه.

٣ - لوط تزوج امرأة كفرت به.

٤ - زيد بن حارثة تزوج زينب بنت جحش.

٥ - وهل كانت أم موسى وأم مريم كفئتان لزوجيهما؟

لا يمكننا أن نعلل تعطيل نكاح مريم لأمر الكفاءة هذا، ولعل ما يدحض هذا الرأي هو ما لاح في أفق تاريخها لخطبتها من يوسف النجار.

إذن فالكفاءة لم تكن حقيقية!

نرانا أمام معضلات، قالوا يوسف النجار خطبها، وقالوا ليس لها كفء، وقالوا هي نذرت العفة! لعل الشيء الوحيد الذي يفسر لنا هذه التناقضات وإن عالجنا بعضها - هو أن هذا التاريخ قد كتب بأيدي بشرية لم تصنه، ولم يتدخل الخطاب الإلهي إلا لتكذيبهم فيما افتروه على الله بشأنها، وما نسبوه لولدها! فلم نقف في الإنجيل كله على آية واحدة يقول فيها المسيح بلسان المتكلم أنا ربكم وابن ربكم!

فهل شُوِّه تاريخ مريم؟

أراني أقود نفسي إلى ما ذهب إليه القديس أوغسطين عندما قال "أؤمن بالمسيحية لأنها دين غير مفهوم".

لكنني لا أستطيع إلغاء عقلي، لعله وقف أمام هذه المعضلات ولم يستطع علاجها فظن أن ديانته غير مفهومة، وفهمها غيب، ولأنه يؤمن بالغيب فعليه إذن أن يؤمن بها. وهي حقًا كذلك، لكننا نقول: إن ذلك كذلك، لا لأن عقولنا قاصرة؛ بل لأن تلك الديانة لم تبلغ مرتبة المعقول ليفهمها العقل!

لله درُكِ يا مريم، فوالله لو أني ومعي مئات الرجال الأشداء ما تحملنا هذا كله!

نعود لنجيب عن سؤال طرحناه منذ قليل، هل كانت مريم أمًّا للمسيح أو لهذا الوليد؟

نقول بكل إصرار وبكل إمكانيات النفي: لا!

فهذا المولود منها هو نتاجها لا ريب، هي التي أوجدته، أو بالأحرى – كانت وسيلة وجوده لا شك عند كل المسميات والديانات وكافة المفكرين هي أمه، لا ريب، نحن لم نقل إنها لم تنجبه، ولم نقل إنه غير ابنها.

لكنا قلنا ومازلنا نقول: إنها لم تكن تجاهه أمًّا ككل الأمهات.

دعونا نخلص الآن للمدخل الثالث في كتابتنا هذه عن مريم، هو تفردها بهذه الأمومة المخصوصة التي ابتليت بها مريم.

لم تكن هناك تجربة مماثلة لمريم عبر التاريخ الإنساني (الثديي) كله.

وهذه الأمومة المخصوصة يجب ألا يظن البعض أنها مخصوصة فقط لأنها بلا أب، فأنا أزعم الآن أنها أمومة خلت من وجود الأب وفرغت من الأمومة كذلك!

دعونا نتساءل أيهما أكثر حاجة للآخر، مريم إلى يسوع ابنها أم يسوع إلى مريم.

لو ذهبنا إلى مذهب أتباع المسيح المزعومين لقلنا إنها أكثر منه حاجة إليه، وهذه الحقيقة تؤكدها الوقائع.

انظروا معي، هذه هي أختي خرجت للعمل – في زمننا هذا بدولة مجاورة وبعد عدة أشهر غابتها عن بلدتنا عادت معها غلامًا، فقلنا لها من هذا؟ قالت: هو ابني! قلنا: من أبوه؟

قالت: لا أب له، هكذا أنجبته بلا أب وبلا نكاح. كذّبناها وضربناها وصببنا عليها العذاب صبًّا، حتى جاء رجل الدين في بلدنا وقد نصح لنا بأنها ربما تكون أُغتصبت رغمًا عنها، ولما حملت لم ترض أن تزهق تلك الروح، ولم تتخل عن هذا الولد! فهو ابنها وإن جُهل أبوه، عذرناها في هذا والتمسنا لها المعاذير، ورحمناها من بعدُ، لكنها لم تعترف بأنها اغتصبت، وجيء بطبيبات نساء وتوليد فأكدن إن بكارتها مكانها وإنه لا يوجد أية آثار لعملية ترقيع البكارة.

لكنها معها طفل!

سمعتها تناجي هذا الطفل وهي تقول ذات ليلة: لولا أنت ما كان عندي مصائب، أنجبت دون استمتاع، ودون آثار للولادة، ولم يصدقني أحد، ظنوني زانية، عاهرة داعرة، باغية، ثم ظنوني مظلومة اغتصبت رغمًا عني، لكني لم أعترف بهذه الأباطيل، فأخذوا يكيدون لي من جديد، فهل من دواء لي من هذا كله الذي سببته أنت؟

سمعت ابنها يجيبها – وهو رضيع – لأمر عظيم جئت، لأهدم لهم هذه الوثنية، وأخرج عبدة المال من بيت الرب، وإنما جئت لأمر ربي، وليس لي وليس لكِ إلا هذا، وإلا فنحن عصاة، وعذاب هؤلاء البشر أهون وأقل من عذاب الرب.

قالت له: لكني لم أر عذابًا إلا عذابهم فهل إلى التخلص منه من سبيل؟

قال: أنا أخلصك.

فلما جاءنا الصباح، أعاد عليها الجميع نفس السؤال عندما وقعت عيونهم عليه: من هذا؟

فأشارت إليه، أي يحدثكم عن نفسه، فقالوا لها: هذا رضيع صغير، ونحن نسألك أنت وما علمنا الأطفال - الرضع - يتحدثون.

فقال الطفل الرضيع لهم: بل أنا أتحدث، فأنا لست كإياكم، بل أنا رسول من عند الله، جئت بصلاة وزكاة وبر ورحمة، جئت لأغيِّر وثنيتكم، أنا المنتظر فلِمَ تسيئون إليَّ؟

سمعت أهلي يقولون: إن الفتاة لم تجيء إلينا بحمل بلا أب فقط، بل إنها جاءتنا بشيطان، علينا قتله، قبل أن يفسد علينا أمرنا، لكنها كانت قد فطنت لذلك، التمسوها فلم يقفوا لها على أثر.

أتساءل الآن أيهما أكثر حاجة للآخر، لا بد وأنها هي التي تحتاجه أكثر مما يحتاجها هو!

لو تقصينا قليلاً من أخبارهما في مصر في رحلتهم فيها مع بعض كتاب سيرة تلك الرحلة وعلمنا أن يسوعًا خرج إلى معلم ليتعلم منه نزولاً على رغبة مريم، فعلَّمه هو وجلس إليه المعلم متواضعًا يتلقى منه المعارف، وهذا هو المعلم الذي لا تبلغ مريم مرتبته لو تقصينا أكثر لعلمنا أن مريم لا تستطيع أن تعلمه شيئًا يجهله هو، حتى إنه مكتوب في الإنجيل أنهم قالوا له: إن أمك في الخارج! فقال: من أمي؟ كأنه يستنكر أن يكون له أم.

نشعر بقليل من رفاهية الحس أن مريم كانت مصاحبة له أكثر من كونها أمًّا له.

فلأكاد أقسم أنها لم تشعر لحظة واحدة أنها اقتطعته من جسدها وأحشائها.

لقد صارت مريم في كتب تاريخ الديانات ذات شأن عظيم، وعظيم جدًّا، لهذه الحالة الهيولية الخاصة، لكننا نرى أن التاريخ ينزوي عنها قليلاً ليفسح لهذا المولود عجبًا، فإن أمره كله كان عجيبًا عليها وعلى الجميع.

إن يسوعًا لم يستمد من أمه أي شيء، بل إن المسيح لم يرضع منها شيئًا فهو مكتمل دونها.

لا أحب أن أطيل الكلام هنا عنه، فهو ليس موضع الحديث، بل مريم التي أحببتها، لكنني أعطف على سيرتها كثيرًا الآن، بعد ما علمت أنها لم تكن ذات بطولة ولا ذات عبقرية، لا نذهب في هذا مع القائلين بمذهب الجبرية، لكن هذه هي الحقيقة، فكما قلنا لم تكن مريم مخيّرة في شيء مما فعلته.

لكن بقي أن نقول إن مريم كفتاة عادية، بل كما قلنا - هي مجرد وفاء لنذر أمها - وحال أمومتها - المزعومة - فإنها بحثت عن الموت فلم تجد إليه سبيلاً، وهي جازعة فارغة من الصبر والثبات أمام هذا الأمر، ولعلها لو كانت أمًّا ولها ولد بشكل طبيعي وأمرت بقتله امتثالاً لأمر ربها لكان الأمر عندئذٍ أهون بكثير - فهذا فداء ولذا قلنا إن الأمومة وكذا الأبوة مجرد ثقافة وليستا بغرائز، لو أُريد من مريم قتلها لولدها لثبتت، فالمرأة تقذف بأولادها جميعًا إلى أتون حرب شوهاء، لا يعودون منها ولا تذرف عليهم دمعة واحدة إيمانًا بأنها مع الحق، وأنها تدافع بهم عن إيمانها وعقيدتها ووطنها وأفكارها (انظر حال الشاعرة العربية الخنساء مع أولادها الأربعة)

ولِمَ نذهب بعيدًا، بل إن الرجل - أو المرأة - يقذف بنفسه أمام

الموت دون مبالاة لنفس السبب، لكن مريم لم تصبر وبحثت عن الموت، فكانت ضعيفة – لا نقول ضعيفة الإيمان – فهذا أمر آخر، لكنها ضعيفة أمام مزلزلات الحياة.

وكأمومة خاصة انفردت بها – كآدم – فهي تحتاج إلى المولود أكثر من حاجة المولود لها – ذلك المولود منها قسرًا وقهرًا دون إرادتها – لذا قلنا إنها لم تكن ثمة أمومة بل مصاحبة.

هل لنا بعد ما قدمنا أن نقيِّم مريم حق التقييم؟

إن السؤال العريض الذي يجب أن نتصدى له، لا لطرحه بل للإجابة عنه هو: هل كانت مريم بكل هذا من أهل الشقاء والبلاء؟ أم أنها قد اكتسبت بهذا كله في الدارين نعيمًا مقيمًا؟

الحق إنه سؤال كبير، فلو أننا أمام معطيات الدنيا للفتيات، فهي فتاة محرومة محرومة، حرمت من متاع الدنيا!

فهي منذ البداية وديعة أمها في بيت عبادتهم، أو متعلقة القلب بهذا الأمر، ثم هي تلد دون رغبتها، وحتى إنها لتريد أن تفر من الحياة إلى الممات! ليت الممات كان مستطاعًا! ثم هي ليست أمومة بل مصاحبة، ثم هذا المولود لها لا يكاد يرى أنها أمه.

أليس من حقنا أن نقول: إن الجنس والتمتع الجسدي ذو قيمة في الحياة، حتى نجعل المحروم منه محرومًا من أهم متع الحياة؟

فالحياة كلها قد حُرمت منها مريم، فربما كانت مجرد وعاء لصب هذا الرسول اليهودي الإسرائيلي، الذي جاءهم بما لا يرغبون حتى أجمعوا أمرهم ليصلبوه ولو افتدوا لصًّا كباراباس الهمجي المتوحش.

ألم يكن لها الحق أن تتزوج زوجًا طبيعيًا بعد ولادتها للمسيح أو حتى بعد موته أو رفعه أو صلبه، المهم بعد نهايته أمامهم، لعله

كان من حقها، لكن الأمر يتعلق برغبة فتاة قد حرمت من كل ألوان الحياة، فكيف تفكر في الزواج والزواج عندها لا بد ستُحيط به مليارات الشبهات والتساؤلات، ومن يجرؤ ساعتها على الاقتراب من هذه.

ذهب بعضهم (كان يهوديًا) أن يوسف النجار قد قال إن مريم ولدت ابنًا له، ربما كان في بعض محافلهم حدث هذا ولو في مخيلة اليهودي المتنصر فحسب، لكنه لم يقل إنها تزوجته حقيقة بعد ذلك، فالأمر لم يتجاوز حدود الشهامة حتى لا تتهم مريم بالزنا ويُساء إليها، وقد يفعل مثل هذا كثيرون من العشاق.

لكن مريم حرمت من أنوثتها لتكون أمًّا، ثم هي سلبت كل معاني الأمومة.

فالجنس قنطرة للأمومة الحقيقية منْ لم تمر بها، فلن تصبح أمًّا، حتى اللواتي يلدن بتحضير في معامل المستشفيات مجرد صوبًا لإنتاج براعم لكن إنسانيتهن مفرغة. ولذلك فعلينا جميعًا اليوم أن نرثى لحال مريم، كانت نموذجًا شذّ نظيره أو انعدم، فهي اليأس كله الذي يتحرك فوق قدمين، لكن الرسول الخاتم يقول إنها من النسوة اللاتي كملن وهن قليلات، والمسلمون يقولون إن الخاتم لا ينطق بالباطل، وإن نسخ قولاً فهو لم ينسخ هذا القول.

نعم هي مكتملة مع نسوة قليلات، ربما عند الحديث عن الباقيات منهن نفهم ما كان يقصده الرسول الخاتم، أما ما ذهبنا إليه نحن بشأنها فهو صحيح ولا يخالف آراء السماء سواء في الخطاب الإلهي نفسه أو من أناب عنه.

فهذه هي مريم العذراء عسى أن نكون قد تحدثنا عن بعض النقاط الهامة في حياتها، لكنني أقول مجددًا إني لو كنت أنثى لا أحسبُ أن أتمنى أن أكون مثلها، أو أحتل مكانها، وربما لو

خُيِّرت هي نفسها لم ترض باحتلالها هذه المكانة ولن ترض العيش، كما عاشت ولن تطمع في قول الرسول الخاتم إنها كملت ككمليلات وهن من أصحاب الفردوس. فلقد تمنت مريم الموت من نفسها لمخاض أجاءها إلى نخلة، فكيف أحب أن أحتل مكانها، الحمد لله أن لم تتكرر تجربتها من بعدها لأنثى أخرى.

الفصل التاسع

خديجة بنت خويلد

هل انتهى التاريخ؟ هل انقطع صوت السماء عند هذه المرحلة؟ هل لن يعود للنبوات والرسالات مكانًا آخر؟ كل هذه المليارات من البشر لا دين لهم إلا ما قد سلف على بضعة من عشرات الألوف؟ واليوم نحن نقتسم هذه الرحمات؟

هل كان يدري موسى والمسيح ومحمد أن أتباعهم اليوم لا يكاد يُحصيهم إحصاء؟

هل المسافات بعيدة بين خديجة ومريم التي كنا توًّا نتحدث عنها؟ أما المسافات المكانية فليست بعيدة فهي تكاد تصل بضعة مئات من الكليو مترات، والشام ومكة مناطق تجارية تربطهما أواصر قديمة.

والمسافات الزمنية تربو على الخمسمائة سنة وبضع عشر سنة أُخر.

يمكننا تحديد هذه المسافات الزمنية والمكانية بدقة، لكن هذا ليس عملنا هنا، ولا نصرف جهدنا إليه.

الانحدار من جبل الجليل والناصرة وبيت لحم ومزود البقر، إلى هذه الصحراء اللافحة، وتلك الرمال الناعمة والجبال الشاهقة، من بلاد الحضارة ودولة الرومان وخيرات البر والبحر إلى تلك البداوة والعيش البسيط، وأكل الضب ومخالب السباع، وحياة الإغارة

والسلب والنهب.

إن الحديث عن خديجة يجتذبنا اليوم إلى تذكر أحوال الإنسان الأولى في عهد الأب الأول آدم، وهو يرى أولاده: قابيل وهابيل وهم يعملون يومًا بيوم لسد رمقهم، وتوفير قوتهم بالرعي والصيد والقنص والزراعة.

خديجة بنت خويلد (تصغير خالد) تلك التجارب الإنسانية التي لم يكن لنا أن نكتب عنها لولا تجرأها يومًا لتطلب محمدًا يعمل عندها في تجارتها بأجرين.

يقولون إن لكل عصر رجاله وأحداثه، فهذه مريم أحداثها الولادة والإنجاب، وهذه هي خديجة وأحداثها هي الزواج والإيمان بدين جديد بين أحضانها وتحت جناحيها ووسط رعايتها.

قال رواة السير إنها بنت خويلد الأسدي، وإنها كانت في بيت عز وثروة، وذات حسب حسيب ونسب شريف ونشأت على الفضائل مقصورة الطرف، تزوجت مرتين وأنجبت أطفالاً، وهي لم تُطلق إنما ترملت مرتين، وهي محتسبة حتى كانت وفاة زوجها الثاني قد أغلقت عليها حياتها وأرادت أن تتبتل.

نود فقط أن نقول هنا إن البيئة الجغرافية والاجتماعية التي نشأت فيها خديجة ذات خصوصية عالية، وعالية جدًّا، فالعرب قوم يقفون وحدهم وسط أمم العالم، وكل مكان ودولة وإقليم من حولهم لهم قوانين تحكمهم وشرائع تسيِّرهم يتوفر على هذه القوانين رجال الحكومة معهم السلطان، ولا نود تكرار الحديث عن الفرس والروم وإعطاء خلفية تاريخية وسياسية لهذه الفترة، فهذا كله لا يدور بخلدنا لا لجهلنا ولكن لتوفرنا على الثقة الكاملة بالعلم بهذا كله عند الجميع.

لكني أريد أن أتحدث عن الصحراء، لا من ناحية قوانينها الاجتماعية والاقتصادية، وطبيعة العيش فيها، وما تفرضه الصحراء على قاطنيها من أساليب العيش وما يعتورها من خطوب وخطوب.

قيل إن حياة العرب كلها جفاء، وهم على الإجمال أهل فاقة، ويومًا واحدًا تفوقوا على جيش كان لكسرى، وهذا اليوم يسمونه "ذو قار" انتصروا فيه وهذه هي المرة الأولى التي ينتصرون فيها على عدو خارج جزيرتهم.

فهم شتات لا يجتمعون على قتال أحد سوى أنفسهم فلما أن كان هذا اليوم فقد دوَّنوه في أشعارهم التي قال عنها حبر الأمة: "الشعْر ديوان العرب".

ولم يتكرر مثل هذا اليوم حتى كانت جيوش محمد والقادسية واليرموك ونهاوند وغيرها الكثير.

البيئة الصحراوية قاسية جافة غليظة، والعربي لا بد له من مؤاخاة الناقة والفرس وتوفره على الحفاظ على الماء ومعرفة النجوم في السماء، وهو غليظ قاسي عصبي حاد المزاج، حتى إنه ليقتل لأهون الأسباب، وعلى الرغم من ذلك فهذه البيئة لم تكن ضنينة عليهم بكل شيء، فقد أعطتهم منتجاتها مثل الحمية والضيافة والكرم والجود والغيرة، والأريحية، والعصبية للأهل وحماية الجوار وصفات أخرى كثيرة.

على أننا نهتم هنا بفعل الصحراء بالمرأة. والمرأة في البيئة العربية قد أحاطت بها الدراسات من كل ناحية. فقيل هي مهانة، وقيل هي منحطة، وهي الموءودة والمدفونة - بحياتها - في الرمال وهي طفلة ما تزال شؤمًا منها.

قرأت منذ سنوات بعيدة أن أعرابيًا بشروه بولادة زوجه، فلما

دخل عليها وجد المولود بنتًا. فأخذها – وهو كظيم – يتوارى بها من الخلق لسوء ما بُشِّر به – كما يحكي القرآن – (انظر القرآن سورة النحل ٥٩) ثم خرج بها إلى البطحاء فحفر لها حفرة عميقة، ووضعها فيها فنظرت إليه، أو التقى ناظريهما، فكادت الرأفة أن تأخذه بها.

لكنه لغلظة قلبه دثها في التراب، ثم عاد إلى أهله يُعيِّرهم بهذه الصفقة السلبية.

وقيل هذه هي عادات العرب جميعًا، وقيل بل بعض العرب وفقط، وقرأت مرة لباحث أجنبي يؤكد على أن البنات، وحظ الأبكار إن كن بناتًا القتل؛ لأن العربي وبيئته يتطلبان القوة للسلب والنهب ومدافعة الأعداء، وغير ذلك، أما البنات فيحتجن إلى الحماية وقيل إن حربًا استمرت عدة عقود زمنية وكان سببها امرأة، وغير ذلك كثير.

لكن البعض من المتهوسين بالمرأة والمنصبين أنفسهم للدفاع عنها يرون أن العربية كانت في أعلى القمم لذلك المجتمع العربي.

حكى بعضهم أن معركة هائلة نشبت بين جند وآخرين، وكان السبب ديني، وزعيم القوم كان عنده امرأة حسناء اسمها ليلى، كان قائد جند عدوه يحبها ويرغبها لكن قصرت يداه عن نيلها، فلما انتصر عليه دخل الرجل إلى دينه ليحمي نفسه وماله وعرضه، وكان على القائد إذ يرى أن المبدأ الذي قاتل لأجله وهو دخول هذا الرجل في دينه قد انتصر، كان عليه أن يفرج عنه ويعتبره كأحد جنوده، ويتبع فيه وصايا هذا الدين، لكنه قتله ونكح زوجه في هذه الليلة وكادت القيادة العامة تعزله عن قيادة جيشه لولا حاجتها إليه.

قيل إن جمال المرأة في الجاهلية هو كل ما يميزها بعد الحسب

والنسب والمال.

والمتصفح لديوان العرب هذا يجد معظم قصائدهم إن لم يكن جميعها تبدأ بالغزل والبكاء على الأطلال وهذا هو تراث القوم ومحمل فخرهم على العالمين وتلك حضارتهم في الشعر، وشعرهم نسوي، كله تعريض بالمرأة، ويكفي مثلاً على ذلك إمام الشعراء أو أكبر شعراء العربية على الإطلاق وهو امرؤ القيس أو الملك الضليل له أشعار لا تُقال في بيوت الدعارة ذاتها. (حامل لواء الشعراء إلى جهنم)

هذه المكانة للمرأة، تجعلنا نشعر أنهم قدسوها وجعلوها كالكعبة يطوفون حولها، وهذه هي هند بنت عتبة بن ربيعة التي يتهمها زوجها مع أحد الأضياف، فلا تمر المسألة بمجرد غضبها واعتزالها بيته، وإرساله إليها مجدداً يعتذر لها، بل يصل الأمر للكشف عن براءتها لدرجة الاحتكام لعرافة يختبرها عتبة بنفسه بحيلة شيطانية تتدخل فيها الخيل حتى يتثبت من صدق حديثها، وتخبرهم إنها شريفة، ولما أن يعاهدها محمد على الإسلام بعد عشرات السنين يقول لها ولجمع من النسوة: وألا تزنين! فتجيب: وهل تزني الحرة؟!

قيل إن العرب كانت عندهم المرأة يأتيها الرجال الكثيرون حتى تنجب، وتختار لأبيه منْ تشاء، وقيل إن الرجل يكون وضيعًا، ويريد ابنا قويًا، فيدعو رجلاً من عِلية القوم ينكح زوجه؛ حتى تلد ولدًا يأخذ من صفات هذا السيد الكريم.

والعرب يعرفون الرق والجواري، والحرة قد تكون ابنة أعظم الرجال تمضي في قافلة فيهجم عليها لصوص ويأخذونها جارية يمتهنونها في كل شيء.

وقيل إن العربي يُقتل دون عرضه، وإنه ليغار شدَّ ما تكون

الغيرة، حتى إن بعضهم ليطلق المرأة، ولا يتركها بعد ذلك تُنكح من غيره، إلا بسلطان لها عظيم.

ما هذا كله؟

لعل ما نسوقه الآن يناقض بعضه البعض، بل هو خليط، قال بعضهم: ما هذا كله؟ إن العرب أمة كبيرة، وهم قبائل وهم بطون، ولكلٍ عاداته، فالعرب فيهم القحطانيون وفيهم العدنانيون، وفيهم العرب العاربة والعرب المستعربة.

وفيهم اليهودي والنصراني والوثني والمجوس والصائبة والملحدون والدهريون وغيرهم، كل الملل والنحل، وقيل إن مجتمع قريش لا ينكر على أحدٍ البتة عبادة أي شيء يروق له، لكن شريطة ألا يسب آلهة قريش ويعظم الكعبة.

إن بعض المتهوسين بالإسلام والدفاع عنه ضد حملات خصومه، قد آلوا على أنفسهم أن يشوهوا المرأة في عصر قبل الإسلام، ثم يزعمون أن الإسلام قد رفع من شأنها علوًا كبيرًا، وجعل لها حقوقًا أهمها حق الحياة بدلاً من القتل، وحق الميراث وغير ذلك الكثير.

وفي حملات الخصوم إن العربي هو أعظم الرجال شهوة تجاه المرأة، حتى إنه ليحارب ويأتي النساء ليلة الحرب هذه، وكأن لا حياة إلا بالنساء، بل إنهم يصحبون النساء في معاركهم الهامة.

الصحراء لا بد لها فرضيات عظيمة على طبيعة الجسد وطبيعة النفس بل والروح ذاتها، لذلك نسمع عن بعض العرب أن أحدهم قد فض بكارة ألف فتاة وغير ذلك كثير، وآخرون قيل إنهم ما نكحوا سوى أبكارًا، فالعرب إذن شهوانيون، لا يكاد يبلغ الشاب عندهم الحلم حتى يتزوج أو يتسرى أو يزني.

والطبيعة الجافة هذه ليس بها مكانًا متسعًا للتدلل، فلا بد من

سرعة النمو السريع أن يواكب نمو نفسي وجنسي عظيم.

من هذا أننا رأيناهم في سير مغازيهم يكتبون عن شباب لما يبلغوا العشرين، وكانوا قادة أعظم الجيوش عندهم. (انظر أمر أسامة بن زيد بن حارثة)

ومن ذلك أننا نرى الرجل الحسيب فيهم ولا يكبُر ابنه البكر كثيرًا.

انظر إلى حمزة بن عبد المطلب عند هجرته مع الرسول إلى يثرب، كان عمره ثلاثة وخمسين عامًا، وكان الرسول الخاتم في نفس السن، فهما أخوان من الرضاعة، وسبب ذلك أن عبد المطلب بن عبد مناف بن هاشم جد محمد وسيد مكة الذي كان قد بلغ من العمر أرذله، لما انتهى من أمر افتداء ابنه عبد الله، بعد مسألة النذر بذبح أحد الأبناء عندما يصلون عشرة رجال يحمونه – كما هو مبسوط في السير – أراد أن يزوج عبد الله، وفي نفس الليلة التي تزوج فيها عبد الله تزوج هو الآخر. وقال لي صديقي كذلك: لكن حمزة كان صائدًا وفارسًا مغوارًا، أما محمد فكان مفكرًا منقطعًا للتأمل، وحمزة هذا هو عم محمد غير شقيق.

من هذه الرواية نفهم أنهم لم يكن عندهم سنًّا يتوقفون عنده عن النكاح، وأنهم قليلاً ما يعتزلون النساء، فالنساء في الصحراء هي الحياة، لذلك رأيناهم يصطحبونها معهم في حلهم وظعنهم وأشعارهم تشهد على ذلك.

كم من السنوات يمكن أن تمر حتى تصل الفتاة إلى هذه السن التي يتسابق إليها فيها الفتيان.

إن علماء النفس وعلماء الطب قد وجدوا أن هذه البيئة تساعد على سرعة النمو والإنضاج، فهي بيئة غليظة، وغالبًا فإن البنات

مقصورات الطرف لا يخرجن حتى لا يلفحهن الهواء الساخن فيغير جمالهن ويحيله قبحًا ، على أن العرب كانت لهم اتصالات كثيرة وهم يخالطون الروميات والفارسيات والحبشيات والمصريات وغيرهن، لكنهم لم يكونوا يحبون سوى العربيات فهن وحدهن الزوجات وغيرهن شهوات.

وكأن القلوب لا تهوي إلا إليهن، والنفس تُصدّ إلا عنهن، ولذا فقد قيل فيهن الشعر الجميل، وحتى الشعر الذي يُقال للتوبة أو الاعتذار بين يدي الحاكم السياسي أو الرسول ولو بدرجة من الدرجات، ولما يجيد الشاعر كعب بن زهير بن سلمى تنميق قصيدته الرائعة التي ما زلنا نحفظها منذ الصغر بانت سعاد، ونؤكد أنه لم يكن يعرف أية سعاد ، يمنحه الرسول بردته وعفوه، ويطير بهما إلى الآفاق ويحتل في التاريخ الأدبي المكانة المرموقة وسعاد هذه هي خلة لا تفي بوعود وقد سيط من جيدها فجع وولع وإخلاف وتبديل، لكنه رغم ذلك كله ورغم مفاتنها التي يعددها وحبه لها وهواه إياها يجلس أمام النبي،ويقول هذا كله أولاً قبل أن يتحدث عن غرضه من المجيء إليه. والرسول لا ينكر عليه هذا بل يثيبه عليه، ثم يقولون من بعدُ أحرام الشعر أم حلال؟ وكأنها قضية؟

قد تصل الفتاة إلى سن العاشرة ويُحيط بها الخطباء وقد تخطب من أبيها قبل ذلك، وللعرب في الحب عادات وعادات، فالرجل إذا أحب امرأة كانت هي السماء وهي الأرض وربما ربه المعبود، هم يلوذون إليها بعد يوم شاق، وهي تروِّح عنهم كيفما استطاعت.

على أن المرأة لم تخرج من قسوة الطبيعة صفرًا هي الأخرى، بل قد تزداد المرأة حدة، وعصبية فوق حدة الرجال وعصبيتهم، وهذه هي أيضًا هند بنت عتبة تحشد كل شيء لقتل حمزة ثأرًا لأبيها وأخيها وعمها. والعرض شيء لا نقاش فيه، والدم أقل ما يمكن أن

يُبذل للحفاظ عليه، فهذا المجتمع هو البداوة، وكثيرًا ما يقول بعض المفكرين إن المتأمل لحال النبوات يجدها جميعًا تكاد تجيء من عند هذه البداوة أو على الأقل من مكان يقل ولو قليلاً عن أن يوصف بأنه الحضارة ويستدلون بنبوات كثيرة.

قد خطبت خديجة وفرحت بالخطبة كسائر البنات، والفتاة إذ تخطب فهي السعيدة كل السعادة، وإذا تسابق إليها غير واحد فهي كقصبة السبق.

لعل من أسباب السعادة الانتقال إلى دار أخرى وحياة أخرى وممارسات أخرى، فهذا التعطل الجسدي سوف ينتهي وهذه البطالة سوف لن تعود؛ وهذه الفتاة قد تكون ذات مال يطمع فيه الخاطب أو نسب شريف أو حسب عريض أو جاه أو سلطان، أو كل ما يمكن أن يطمع فيه المرء إلا الفتاة نفسها، لكنها رغم كل ذلك تظل سعيدة، بل أزعم أن المرأة قد ترى زوجها لم يتزوجها بل تزوج مالها وسلطان أهلها وتبدو فرحة سعيدة منشرحة الصدر بذلك كله، حسبها وكفى أن تفرِّج عن تعطل جسدها، وتمارس علانية ما تخشى فعله سرًا، ثم إن النساء بهن سيئات كثيرة، فلا بد لئلا يزهدهن الرجال من مرجحات ترجح ذلك السوء وليكن المال.

الواصفون لسيرة خديجة يتحرجون كثيرًا عن الخوض في مسائل هي قواسم مشتركة عند كل الناس، وأنا اليوم في هذا الزمان (المفتوح على كل شيء أحب أن أعطِ للكافر نقده وتحليله الكافي قبل إيمانه ثم أعرج للإيمان وأكافئه بحثًا وتنقيبًا، ولا أتحدث عن الكافر بعد الإيمان، وهذا هو حق البحث وصوابه).

غايتنا اليوم هي التصريح بكل ما نشعر به ونحسه، ولندرك قبل كل شيء أنها الإنسانية، وإن خالجنا شك أنهم كانوا أُناسًا مثلنا أو زادوا علينا شيئًا سوى طبيعة حياتهم وظروف بيئتهم فنحن

نعظمهم ونحقّر من شأننا.

قال أحد العلماء إن أعظم لذات الحياة هي لحظة نزول المني من ذكر الرجل، وأن كل لذة إما ممهدة لهذه اللذة أو تابعة لها.

ولن تكون هذه لذة حقيقية إلا بالمشاركة، أي أن أعظم لذة عند المرأة هي نزول مني الرجل إليها، لذا فالنكاح هو أعظم ملذات بني الإنسان، ومن لم يرغبه فهو من الإنسانية في نأي بعيد.

ثم تزوجت خديجة وقيل في حفل لا بد وأن واصفوه لم يجدوه مكتوبًا أو مدونًا ولا حتى في صدور الرجال، بل هم قاسوا ما كان يمكن أن يكون عليه عرسها بمدى بذخ أهلها وثرائهم، وهم الذين يفاخرون بالولائم ويكنزون المال لمثلها.

وقالوا: إنها عاشت مع زوجها هذا عيشة هنيئة، ككل النسوة العاقلات، وتوفرت عليهما عوامل السعادة وأسبابها جميعًا، وعاشت ما شاء الله لها أن تحيا مع زوجها حتى مات عنها، ثم باتت أرملة، وقيل كانت قد أنجبت منه فتاة هي هند، وعادت إلى بيت أبيها، والحزن يُخيِّم على الجميع، شاءت السماء أن تصير هذه الفتاة أرملة لكنها لم تسلبها أسباب النكاح، فهي متوفرة الجمال والحسب والمال، فسيأتي آخر، ولكنها لن تحيا معه طويلاً هذه المرة، وباتت بعد هاتين التجربتين مالكة أمرها، ومات أبوها، فصارت سيدة أموالها وانضاف إليها ما كان من ميراثٍ لها من عند زوجيها الآفل نجميهما. وباتت سيدة تجارة لها مراسيل وعملاء ووكلاء وعمال يصدرون بأوامرها، ونشط إليها علية القوم يخطبونها للزواج لكنها رفضت.

يسعنا أن نقول إن الحياة قد أعطت خديجة أشهى ما يمكن أن تعطيه لامرأة من ملذات العيش، فهذه الثروة لم تحرم منها ولو يوم واحد طوال عمرها، وهؤلاء هم الأزواج لم تحرم منهم والصحة

توفرت عليها حتى أنجبت ثلاثة أبناء، فلم تحرم من الزوج والمال والبنين والأمن، والمكانة المرموقة والعيش الهانئ، وخلا قلبها من أطماع وأحقاد.

نقول إنها ملتذة الجسد، ممتلئة خزائنها بالمال، ذات أولاد، وقلب سليم وروح صافية، فهل استطاعت الدنيا أن تعط إنسانًا فوق ذلك؟! إذن لا مزيد من هذه الملذات، فلن تتزوج أحدًا يطلبها وهذا طبيعي جدًا، ولو لم تفعل خديجة هذا لقلنا عنها إنها غير ناضجة. أود أن أقول: إن مثل خديجة الآن كالعلا، والذي يطلبه إنما يريد أن يسعد به لا يريد أن يُسعده، فالعلا يُسعد من يشاء ويُعرض عمن يشاء.

وماذا ستكسب بالزواج؟ مال؟ أبناء؟ رفعة؟ الشيء الوحيد الذي ستكسبه هو الرجل والنكاح وهي ثكلى، ترملت مرتين، وتخشى أن يكون حظها من الرجال منكودًا، ثم هي باتت تفكر بشكل آخر، من حيث أنها تنظر إلى الشهوة نظرة الخبير بها المستكشف لأغوارها لا المتطلع إليها الراغب فيها.

والمجتمع المكي كله يُقبل عليها بزيجات أعظم من سابقيها كثيرًا، والمتأمل للنفس البشرية يجدها لا تستطيع أن تزهد إلا في أشياء عرفتها وخبرتها وعبّت منها أو تستطيع ذلك، وذلك هو حق الزهد، حتى تجد فيها شيئًا آخر لم تكن تراه، ولم تكن تفقهه، هذا الشيء إما أن يجدّ على ذلك المزهود فيه أو حال يتجدد للزاهد نفسه.

ولا ريب أن خديجة علمت أنها باتت امرأة شمطاء، فعامل جمالها — إن كان موجودًا — والتلذذ بها، لا يقف اليوم على قائمة أسباب الرغبة في نكاحها، بل هو المال والجاه، وهي ليست ذات أطماع، ولا تخشي بأسًا، فهي تحيا وسط بيئة أعظم سلطان فيها هو المال، فلن تخش شيئًا ما دامت تملكه.

على أن هؤلاء العرب كان يكفي عندهم أن يطلق رجلاً من

كبارهم كلمة فيتناقلوها ويذيعوها وينشروها، وما أسرعهم في نقل مثل هذه المرويات خاصة إذا كانت ذات بال عندهم.

ولأروي شيئًا يدل على ذلك: في البيئة الجاهلية رجل له أولاد كثيرون من أمهات شتى، ذبح ناقة، وذهب أولاده إليه يتقاسمونها، وأبناء منهم ذهبوا متأخرين، فوجدوا من الناقة أنفها وحسب، جرجروه ورجعوا إلى أمهم، فقال الناس عليهم أنف الناقة، وعُيِّروا بذلك طويلاً، حتى جاءهم شاعر عربي يدعى الحطيئة فلما زارهم وجد عندهم كرمًا وفيرًا، فمدحهم قائلاً:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنب؟

فطارت شهرة هذا البيت، وباتوا يفتخرون بأنهم هم أنف الناقة بعد تعييرهم بها قبلاً لمجرد بيت شعر مدفوع أجره، ربما على سبيل الرشوة – مثلاً لا الكرم. هذا كله يطابقه علم النفس الحديث الذي يزعم علماؤه أن الناس في عمومهم في إصدار الأحكام يتأثرون بفئة خاصة، حتى قال أحد نقاد الأدب حديثًا: إن الناس في المجتمع أخلاقهم تبع لأخلاق مؤلفي الروايات.

أريد أن أقول إنه ما أن يطلق أحد زعماء قريش على خديجة أنها لا تُنكح، ولا رغبة عندها في الزواج حتى ينصرف عنها الجميع، ولا يطمع في رضاها أحد، وذلك بعد فشل بعض التجارب.

لا أريد أن أقول إن بعض المتقدمين إليها ورفضوا أخذوا يتقولون عليها إنها متعالية، وما عاد عندها رغبة في النكاح حقدًا من عند أنفسهم أن يتقدم غيرهم ويحظى بما فشلوا فيه، وهذا ملموس وواضح ولن نحتاج إلى الخوض فيه، لكن بشأن خديجة ليس عندنا دليل على صحة هذا الزعم، وإن لم يكن مستبعدًا،

لكل ما سبق يصح في مثل هذه الحالة أن تقف خديجة بلا زواج فترة طويلة.

البيئة العربية كلها وخاصة قريش مصدر ثرائها هو التجارة، ويقال قريش من قرشت البضاعة ثم فرقتها أي جمعتها ثم فرقتها.

ومال خديجة كله في التجارة، وهي لن تخرج فيه للشام أو لليمن، بل تكتري غيرها؛ ليخرج في تجارتها، حسب ما كان معمولاً به حينذاك.

ولقد أكثر رواة السير من الحديث عن عمل محمد في تجارة خديجة، وحُسن سياسته، ووصف غلام خديجة – ميسرة – لها الرحلة، وكيف كان ربح محمد في الشام، فكأنه قال لها: كنا إذا ذهبنا نبيع أقبل التجار علينا كأن ليست بضاعة غير بضاعتنا في السوق فنبيع كما نشاء، وتجار قريش حولنا يعجبون، وقالوا: لعل محمدًا قد سبق إليهم باتفاق، فأخذوا منه وتركونا.

ثم إذا جئنا نشتري كأن السوق قد خلا إلا منا والجميع يعرض علينا بضاعته، فنشتري كيف نشاء، فازداد عجب قريش، وكان ربحنا وفيرًا.

وقيل إن محمدًا وقع في نفسها موقعًا حسنًا، ورأت فيه ما لم تكن تراه في غيره.

ما الذي يعجب خديجة في محمد؟

هل يمكن أن يعجبها فيه مهارته وربحه؟ إن التجارة دومًا معرضة لهذا وذاك، فلو خسر لقالت هذا نصيبه ونصيبي، ولعمري لن يكون أول الخاسرين، كما لم يكن أول الرابحين.

قلنا إنه يندر أن يصل الشاب إلى سن العشرين بلا نكاح، ومحمد قد بلغ الخامسة والعشرين، وهو حسيب نسيب في أهله، وجلد قوي البنية، فلِمَ لا يتزوج؟ هم يسمونه في مكة الصادق الأمين، لكنه أيضا يُدعى يتيم أبي طالب الفقير، الذي رضي أن يعمل في مال

امرأة ليحصل على مال، ولا بد وأن هذا المال سيتزوج به.

كان يمكنه مع توفر الربح هكذا أن يختزن منه قليلاً لنفسه، على الأقل يعطيها الربح المعتاد، ويقتنص الفائض عنه، وهو في حاجة إليه، خاصة أنه أعزب.

لكنه لم يفعل.

فهو أمين حقًا مع الفاقة، وأمامه الثروة، هذا خلق بحق نادر.

لكن هل هذا المتخلق بالأخلاق النادرة يجعلها ترغب إليه في الزواج، رغم فاقته؟ وما يمكن أن يقف في طريق هذا الزواج من عقبات؟

إن الإنسان - لا ريب عندي - يمور مورًا، ويموج موجًا فهو كثير التقلبات، سريع الانفعالات، مؤمل في الدنيا وإن كان على حافة الآخرة، بل نقول: إن هناك رغبات مخزونة لا يمكن فهمها ولا حتى إدراكها حتى حينها، كالطالب في الامتحان قد يدرك من المنهج الدراسي أشياءً كثيرة لا يستطيع الإفصاح عنها إلا عندما يستفزه السؤال في الامتحان.

كذلك الإنسان عمومًا وللمرأة خصوصًا رغبات تكتنزها بداخلها، قد تفعل طوال حياتها ما يخالف تحقيق هذه الرغبات، حتى تتضح وتطفو على سطح حياتها، فلن تجد المرأة ساعتئذ إلا أن تضحي بكل ما ادخرته من جهد جهيد في حياتها لنيل هذه الرغبة إن عَزّ نيلها، فكيف والسبيل إليها ذلولاً.

لا نقول كما يقولون مراهقة متأخرة، نقول إن متع الحياة إما نفسية روحية يشعر بها المرء تخاطب روحه، وتجعله يحيا في حالة فناء مع الحياة، وإما متع حسية مادية تجعله يعيش في حالة صراع مع الحياة، يسميه البعض صراع البقاء، وهذا الصراع يحتاج للقوة

وإلا انطبق المثل الذي يزعم أنك إن لم تكن ذئبًا لأكلتك الذئاب، وأنت في الحياة إما قاتل وإما مقتول.

هذه الحياة غاصت فيها خديجة، فهذه الحياة وهذا سلاحها المال وهو كثير تنميه وتعمل على ثرائه وزيادته، وهي كما قلنا متجردة من أطماع الدنيا وأحسب أنها إنما تعمل على زيادة المال لئلا ينتقص وكلما تقدم بها العمر ومالها قليل فهي إلى الخراب والبوار تسير، والمال في الهرم خير منه وأنفع في الصغر لذوي المرض خاصة في مثل مجتمع البداوة.

لكن هذه الأسباب المتوافرة كلها تجعل الإنسان قويًّا مرهوب الجانب.

لكن الفلاسفة، بل والأنبياء أكدوا على أن القوة لا تخلق سعادة، والقوة لا ترادف السعادة.

لذا فإن الأقوياء يبحثون عنها، وإن لم يجدوها اشتروها، وإن كان ثمنها هو التخلي عن القوة نفسها كما كان من الأمير جواتاما بوذا الذي ترك حياة لا قبل لخديجة بمثلها، وزهد في الدنيا وعاش كالمتسولين مؤسسًا دينًا له أتباع للآن، لنرى أن البشرية ما تزال تجرجر أذيال طفولة عقلها مع تقدمه في مناطق أخرى.

إذن ففي محمد تتمثل هذه النفائس الروحية التي لم تجده عند غيره.

فهل تطلبه للزواج؟!

للعرب يوم مشهود جاء ذكره في القرآن، ولو أننا نتعرض الآن لسورة الفيل لقلنا فيها كلامًا كثيرًا، خرج أبرهة الأشرم - الموفود من قبل الإمبراطور الرومانى لإنقاذ أصحاب الأخدود النصارى - بعد أن بنى القلّيس من الذهب والفضة ولم يحج إليها أحد، خرج لهدم كعبة العرب، بفيله الشهير، وأرسلت السماء طيرًا

أرجعتهم القهقرى، يجرجرون أذيال الخيبة، حتى عظمت الكعبة جدًا في نفوس العرب وزادت حرمتهم لها.

في هذا العام الشهير ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، من آمنة بنت وهب.

وهو عام سهُل التأريخ به، بل لقد اتخذوه تاريخًا كيوم ذي قار وأعظم كثيرًا، ولكن قبل هذا العام بخمسة عشرة عامًا على الأرجح ولدت خديجة - التي نتحدث عنها - خمسة عشرة عامًا للمرأة في البيئة الجاهلية قد تجعلنا نرجح أنها تماثل عمر آمنة بنت وهب أم محمد بن عبد الله.

وإن لم يكن عُمر آمنة بنت وهب خمسة عشرة عامًا، فإن خديجة في هذا العام كان يمكنها أن تتزوج عتيق بن عابد زوجها الأول وتنجب منه إن لم تكن قد تزوجته حقًا. على الأقل قياسًا بزواج محمد بعائشة بنت الصديق وعمرها لم يتجاوز الثالثة عشرة على أقصى التقديرات. وكافة المؤرخين والكتاب والمنظرين والمحللين والمفسرين يمرون على هذه المعلومة مر السحاب، بل هم يفاخرون بذلك كحجة عظيمة عندما يدافعون عن شهوانية محمد، وخلاصة قولهم إنه في فترة شبابه التي تمور وتفور بالرغبات تزوج من امرأة عجوز تكبره السن وهي ثيب، وظل معها حتى توفيت. فأين شهوانيته؟ ولم يتزوج بكرًا سوى عائشة، وكل زيجة لسبب إما يخدم الدعوة أو سبب عظيم يحمل معاني إيمانية بعيدة كل البعد عن أمر الشهوات هذه.

هذا دفاع حملة الأقلام دعونا منه الآن.

هل كانت خديجة تعلم أن محمدًا سيجيب طلبها ولن يرفض ذلك وهو الشاب وهي العجوز؟

قالوا إن لخديجة ابن عم اسمه ورقة بن نوفل، ذهب مع نفرٍ من قريش في إبان شبابهم وتعاهدوا على أن يبحثوا لأنفسهم عن الدين الحق فيتبعوه، وورقة اختار النصرانية دينًا له، وقرأ الكتاب (الكتاب المقدس قطعًا بعهديه القديم والجديد) وأصبح ذا مكانة في قريش، كما قلنا سابقًا.

وفي قريش تستطيع أن تعبد أي شيء وتدين بأي دين، لكن لا تسب آلهتهم ولا تحقّر الكعبة.

المهم أنهم قالوا إن ورقة هذا كان على صلات طيبة بخديجة – الطاهرة – كما أطلقوا عليها لترفعها عن الدنايا، وقد رأت خديجة في منامها يومًا شمسًا تحط في دارها وتستقر في حجرها، ثم خرجت من حجرها إلى الدنيا فملأتها نورًا، فذهبت – خديجة – برؤياها هذه إلى ورقة بن نوفل، وقصتها عليه، فأنبأها – تأويلاً لرؤياها – بأنها ستتزوج رجلاً يصير نبيًّا، ويكون نبي آخر الزمان، ونور دعوته سيعم الدنيا، فباتت تترقب هذا الذي يستأهل مراتب الأنبياء، حتى هدتها فطرتها – التي سنعوّل على استقامتها هي الأخرى – إلى أن محمدًا بصفاته هذه يمكن أن يكون نبيًّا.

هنا موطن عظيم لمن أراد التأمل، انتبهوا معي جيدًا، العالم كله يهوده ونصاريه، وكل الملل والنحل، قد أشاعوا أن هذا الزمان – زمان خديجة الآن – هو زمان نبي آخر الزمان، وهو النبي الخاتم، نلتمس هذا مثلاً من أقوال اليثربيين عند سماعهم عن نبوة محمد، حيث كانت اليهود تقول لهم: هذا زمان نبي آخر الدنيا، سيخرج قريبًا وسنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم.

والبعض يرجح أن تهديدات اليهود هذه هي سبب إيمان اليثربيين، لا خوفًا من بطش اليهود، ولكن ليسبقوهم إليه ولأنه لم يقل إنما أُرسل لليهود، بل للناس كافة.

أما خديجة، بل والعرب كانوا في شغل عن هذا، فالذي يتأمل حال العرب يراهم وإن كانوا متدينين، بديانات شتى لكنهم في النهاية دهريون، لا ينتظرون شيئًا يجدّ على دياناتهم كاليهود، فالعرب حقًا يحفظون تواريخهم ويهتمون بأنسابهم وأيامهم وآبائهم، لكنهم لا يهتمون بتطلعات دينية هامة.

ولا أظن أنهم قد خطر ببالهم أن يكون نبي آخر الزمان منهم، وهذا ما لم تقل به اليهود، فلما تحقق لم ترض به.

لو أن شمسًا دخلت حجر خديجة ثم خرجت لتنير الدنيا وكان بوسعنا أن نصدق تلك الرؤيا، فليس بوسعنا أن نصدق تفسير ورقة لها.

وإلا فتعالوا بنا نتأمل هذه هي خديجة صاحبة الأربعين سنة، وهذا هو محمد إن لم يكن من أمثال أولادها فلم يشيع – أو يكثر – في هذه البيئة مثل هذه الزيجات، ثم في أي وقت قال لها ورقة هذا؟ بعد وفاة زوجها الأول! إذن فلا قيمة لهذا الذي قيل لأنها تزوجت آخر، ولم يكن نبيًا، ولو كان بعد الزوج الثاني، فهل انتظرت كثيرًا؟

وهل رفضت المتقدمين إليها بسبب ذلك؟

هل كانت تنظر للواحد منهم فتراه مع علو مكانته، وارتفاع قيمته، وحسبه وماله، يشرب الخمر والأنبياء لا يشربون الخمر، فترفضه؟!

أم تراه يزني أو يُرابي وهو فاجر أو سفّاك دماء، والأنبياء لا يسلبون ولا ينهبون؟

هل يمكن لنا أن نصدق أن رفض خديجة للزواج جاء لمثل هذه الأسباب؟ هل تتوسم في المتقدم إليها النبوة وإلا فترفض؟

أعتقد أن لو كان هذا صحيحًا فلن يكن من الجائز لنا أن نكتب عنها الآن شيئًا! وهذا الاعتقاد إن صح يسلبها كل فضيلة، ونحن لا

نلقي القول على عواهنه، فلدينا الدليل القاطع على صدق قولنا!

تعالوا بنا نتأمل ليلة الغار؟ الليلة التي نزل فيها الوحي بأول آيات القرآن على محمدٍ، ونتتبع سيرة حياته قبل هذه الليلة وبعدها، فهل نجد في أقوال محمد – مع أنها لم تكن مؤرخة بشكل دقيق – ما يدل على أنه ينتظر النبوة؟

ولماذا انكشف أمر نبوته لخديجة وعُميت عمن سواها؟ هل فضل سبقها الإيمان بدعوته يدل على انتظارها هذا الأمر؟

إن الأمر هنا وأمر علم بني إسرائيل بحمل مريم سواء، فلو كانوا يعلمون بنبوته لاتبعوه، وما عجبوا لنزول القرآن عليه دونهم، ولا ينبغي أن يزحزحنا عن هذا الاعتقاد أنهم قالوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ويفسر البعض ذلك بأنهم مصدقون بكل ما جاء به، لكنهم يحقدون على يتيم أبي طالب، فهذه الآيات نزلت في وقت أبعد من المرحلة الأولى للدعوة. حقًا ثبت أن محمدًا نبي ولو كفرت به بنو إسرائيل، بل ولو كفر به العالم أجمع، وهو مؤيد من السماء – ويا ليتنا بصدد هذا الآن – لكن محمدًا على الأرجح لم يقل بنبوته قبل إعلامه من السماء بها.

فهل ظلت خديجة خمسة عشرة عامًا معه تنتظر هذا الإعلان؟ ولم تخاطبه يومًا في أمر رؤياها؟

ثم من هي – عند نفسها – حتى تظن أن رؤياها ستتحقق لا ريب؟

هي الطاهرة الحسيبة النسيبة ذات المال والجاه، والجمال والكرم وصفات أخرى جميلة تعرفها كلها لنفسها لا ريب، ولا يجحدها أحد، ولا علاقة لها بالسماء، فهل كانت تعرف عن السماء وأمر الوحي والإلهام وأولياء الله قبل البعثة شيئًا؟

نحن نرفض هذه الرؤيا وذلك التأويل، لا لأنه يقف أمام البحث

العلمي فحسب، ولكنه يسلب خديجة كل فضل.

فلو رأى رجل متكاسل الجنة وريحها وملذاتها، ونادته حورية من حوارييها أن أقبل لهذا النعيم، فهمَّ بذلك، فصده خازنها حتى يذهب إلى معركة – ما – فيمتشق الحسام ويُقتل ثم يُزف إلى هذه الجنة، ففعل، فإننا نقول إن هذا الرجل ليس مؤمنًا، أو أن إيمانه ناقص، وهذا هو أعظم ما ميز دعوة محمد بسلب هذا الرجل لإيمانه، وإن لم يكن يُستكثر عليه دخول الجنة، ولست أظن أن محمدًا يرضي مثل هذا الرجل من المؤمنين، بل قد يرضاه عيسى أو موسى، لأن بني إسرائيل لا يؤمنون بالغيب.

وإن أعظم ما أكد عليه الرسول الخاتم هو الإيمان بالغيب! وذلك الإيمان أسماه الإحسان، وكثيرون من الصوفية يتعبدون لربهم بعيدًا عن المطامع في الجنة أو الخوف من النار، ومن لم يصدقنا فلينظر فيما كانت تتفوه به رابعة العدوية بعد قرن من مضي صاحب الدعوة الإسلامية!

لو كانت خديجة تؤمن إيمان بني إسرائيل، فلا تستحق أن تكون في الجاهلية الطاهرة، وفي الإسلام أم المؤمنين، وأعظم امرأة في الحياة، حتى أعظم من حواء بتقديراتنا تجاه المرأة.

هل هذا هو سبب رفضنا لهذه الرؤيا فحسب؟ كلا! عندنا أسباب أخرى لعل أعظمها هو كشف الحجب لخديجة وكذا ورقة، نتساءل ألم يؤثر دين ورقة عليه في تأويله للرؤيا إن صحت الرواية؟

المستبطن لأعمال ورقة المكتوبة في التاريخ يحسب كأنه ما طاف وما اهتدى، بل ما زال متحيرًا يتخبط.

خديجة لم تر هذه الرؤيا، أم أنها رأتها وأذيع خبرها، فأصبح الناس يتكلمون بأن ورقة قال لها سوف تتزوجين نبيًا يعم نور دعوته العالم كله؟

وأصبحت المسامر لا تتسامر إلا بذاك؟

هل كان المتقدمون إليها يعلمون أنهم ينقصون شيئًا عن الأنبياء فطمحوا لنيل هذه المكانة؟

فهل علم محمد بهذه الرؤيا أم أنها كتمتها حتى نُبئ وكذا كتمها ورقة واعتبر نفسه قسيسًا يحتفظ لخديجة بسر من أسرار الاعتراف، فهو إذن قد شرب النصرانية حتى النخاع مع أنه لم يدعُ إليها.

لو أرسلت خديجة لمحمد تخبره بطلب الزواج، فهل تحسب هذا تذللاً أو تواضعًا منها شديد؟

هي تحسب لهذه الخطوة حساباتها.

نحن نرجح ما ذهبنا إليه آنفًا في أسباب عزوفها عن الزواج بكبراء مكة وتفضيلها محمد، لما يتفق مع ما يمكن أن يكون إنسانيًا قحًّا!

نحن لا ننفي دور الروحانية ولا الأمور الخارقة في الحياة لبعض الناس أو ما يسمى بالولاية عند بعضهم، لكننا نكتب عن زوج رجل خرج للدنيا بدين سماوي بشري قح، ليست فيه طقوس سرية، ولا مناطق مجهولة في هذا الدين، وعقائده وعباداته ومعاملاته جميعها مبسوطة غير محجوبة، والبيئة الجاهلية لا تؤمن بهذه الخوارق، إلا للسحرة، والسحرة لا فضل عندهم كالشعراء مثلاً.

ونحن إذ نرفض الخوارق من هؤلاء فنحن نضيف إليهم، ولا نقلل من شأنهم بهذا الرفض.

ولا نقول: إن شاعرًا أبدع قصيدة فأجاد، فنقول له: لا فضل لك، بل هو الشيطان أو الجن ألقاها في روعك، فأنت مجرد ناقل لست مبدعًا، سيطرب لذلك ويحسبه مدحًا، بل سيغتم، ولو عرضت عليه أعظم القصائد في الأدب العالمي والأقل منها درجة من

الناحية الإبداعية والفنية لفضّل القليلة درجات على ما يلقي إليه الجن من أعظم القصائد.

أرسلت خديجة امرأة عجوز إلى محمد تتحاور معه أكثر من أن تُعرض عليه أمر الزواج.

قالوا سألته: يا محمد ما يصدك عن النكاح؟

فأخبرها بأنه لا يجد ما يتزوج به.

فقالت العجوز بدهاء: فإذا دعيت للمال والجمال فهل تجيب؟

(اعرضوا أنتم على فقير هذا العرض، بل اعرضوه على أي رجل في الحياة فهل يرفض؟!)

قال: ومن تلك؟

قالت: خديجة الطاهرة، امرأة ذات مال وجمال!

فقال: وهل إلى ذلك من سبيل؟

فقالت العجوز: ارغب أنت ودع الأمر لي!

قال: قد وافقت.

قيل إن عمها هو الذي زوَّجها، واختلفوا في كونه عمها أو أباها، لكنا نرجح كونه عمها.

وقيل إنها أسقته خمرًا حتى ثمل، ومعه غيره من أهلها، ثم أخبرته أن محمدًا بن عبد الله بعث إليها يخطبها، وظلت به حتى وافق! فلما أصبح الصباح جاء إليه القوم يهنئونه كأنهم يتلامزون، فذهب إليها – عمها – وقال لها: هل زوّجتكِ بمحمد بن عبد الله البارحة؟

قالت: نعم قد فعلت!

فقال لها غاضبًا: أنا أزوّجكِ يتيم أبي طالب؟ لا وعمري لا يكون ذلك أبدًا.

فقالت: قد فعلت البارحة، وعلم الناس، فهل تريدهم أن يقولوا إنك تشرب الخمر حتى تسكر. وظلت به حتى وافق.

فهل كانت هذه هي عقبة الزواج؟ رفض أهلها فقر محمد ويتمه. لعل هذا صحيحًا، فقد أوردت الكتب أن أبا طالب بن عبد المطلب (عم الرسول وكافله) هو الذي ذهب ليخطبها له، وقال فيما قال يومئذ: إن محمدًا حيث ما علمتم في أهله حسيبًا نسيبًا، وهو صادق الوعد أمين، وعلمتم من كرم أخلاقه وطيب عنصره، وصدق أروميته ما علمتم، وإن كان محمد في قِل من المال، فإن المال عرض زائل وظل لا يدوم.

فأثنوا على قوله وأنكحوه خديجة.

لكن هل تضطر الطاهرة أن تُسكر عمها ليوافق على محمد؟

لا! لا نرضى بهذا فلا بد وأن واضع هذه الرواية عُمِّى عليه أمر هام جدًّا.

ذلك أن الإنسان العظيم إذا همَّ بفعل شيء وجد فيه سعادته، وهناءته فإنه يقاوم الدنيا لأجلها، ولن يعدل الرجل – كما زعموا – من رفضه إلى القبول لمجرد خوفه أن يُقال إنه يشرب الخمر حتى يسكر وما يعي ما يقول.

لا... أقسم أن لا... ربما كان الخوف عند عمها في مجتمع مثل بغداد المأمونية، أو مجتمع الكوفة أو البصرة أو المدينة المنورة، في عهد الرسول أو خلفائه، أما مكة الجاهلية وما أيسر الخمر فيها، وما من دين يحرِّمها عليهم، ولا عرف يُكرِّهها لهم، فهذا الأمر لن يخشاه، حتى يرض بأمرٍ لا يرضاه، خاصة في المصاهرة، فهو إن اعترف بالسكر وإن عِيب عليه ذلك فهذه ذلة له، أما أن يرض بزيجة لا تناسب مقامه الرفيع، ورضخ، فهذا أمر قبيح، وهل يُغلب

على أمر مثل هذا إلا إزاء إصرار خديجة، وهي ذات سلطان؟

إن خديجة قد زوجت نفسها بمحمد، وما أهلها وما أهله وما الولائم وما الطقوس كلها إلا مسايرة للأوضاع وتمشيًا مع العُرف السائد.

قالوا إنها أرسلت إليه بمال وطلبت منه أن يُحضر كذا وكذا على سبيل المهر ففعل، ويقدم لها كذا كذا على سبيل الهدايا ففعل.

فهي أرادت أن تتزوجه وتعلم فقره وسترته أمام الناس غاية ما في الأمر أنها قد تزوجته، ونحسب أنه انتقل للحياة في دارها، وهي كما قيل تجاور دار عبد العزى ابن عبد المطلب (المشهور بأبي لهب فيما بعد) وزوجه أم جميل بينها وبين خديجة غيرة ومشاحنات والمتحدثون جميعًا عن هذا الزواج يسكتون عنه حتى بعثة محمد.

ثم يعودون فيقولون إنها أنجبت منه (القاسم - الطيب - عبد الله - زينب - أم كلثوم - رقية - فاطمة) ومات الذكور، وتزوجت زينب العاص بن الربيع وأم كلثوم ورقية تزوجتا عثمان بن عفان الواحدة تلو الأخرى وماتتا عنده، وتزوجت فاطمة ابن عمها عليَّ بن أبي طالب، وقد بقيت فاطمة حتى بعد رحيل محمد بستة أشهر على الأرجح.

وتخبرنا الروايات أن محمدًا في الخمس سنوات الأخيرة قبل البعثة قد حُببت إليه الخلوة، حتى كان يتحنث لربه الأشهر الطوال، فكانت تمده بالطعام وترسل غلامها زيد بن حارثة إليه يتفقده.

ويسكت التاريخ أيضًا إلا عن ذكر حادث التحكيم بعد بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود في مكانه، وكذا أمر محمد مع عمه أبي طالب وكفالة عليّ، وتبنيه لزيد بن حارثة الذي فضّل الحياة في كنفه عن الحياة في كنف أبيه وعمه.

ثم هو الصادق الأمين ذو الروح الحلوة، الذي يعف نفسه عن الدنايا ناهيك عن الخطايا، وكان له في مال خديجة متسعًا من

الكد والعمل الشاق، لكننا نتساءل هنا سؤالاً طالما نسأله دومًا لكل رجل وامرأة، جمعت بينهما مثل هذه العلاقة، وكما سألنا عن يسوع ومريم ومصاحبتهما أمومة، نتساءل الآن عن محمد وخديجة ومصاحبتهما زواج، أيهما كان أكثر حاجة للآخر؟

قلنا إن مريم كانت أكثر حاجة ليسوع ليبرئها ويعلمها أشياء أخرى.

أما هنا، فلنطرح الأمر ثم نجيب.

محمد شاب فقير لا يملك ما يتزوج به، وإن كان حسيبًا نسيبًا ذا صحة وطاقة وصدق وأمانة.

لكنه لا يجد ما يتزوج به، وهو يرغب في النكاح، خديجة امرأة أرملة أم أولاد ذات جمال ومكانة وحسب ونسب وشرف ومال وسلطان، وتريده وتساعده على الزواج.

هل يحق لنا أن نسأل لماذا كان على الرجل أن يُعطِ المرأة مالاً على سبيل المهر أو الهدايا، وأنه هو الذي خلق ليعمل ويتكسب والمرأة تجلس في البيت تتلقى الهدايا، وتنتظر زوجها وكده؟

ذهبت بعض المجتمعات إلى أن المرأة هي التي تتكالب على الرجل وتعطيه المهر والهدايا وتعمل ليأكل، أي أن الصورة متباينة، وبعض الثقافات رأت أن الرجل كان يذهب ليعيش عند أهل زوجته، ويعمل عندهم أو معهم، ولم تخرج الفتاة من بيت أهلها لبيت زوجها إلا في القرون المتأخرة، وسنفصل ذلك في سفر آخر وهذا يعقوب (إسرائيل) وموسى مثلاً شامخًا على صحة ذلك.

ثم هذا محمد، أم أن هذا هو الأمر على النبوات.

صُرفت اهتمامات الأنبياء من أمور العيش والزواج للتفكر في السموات والأرض، ولكي تكون حياتهم متوافقة مع البشر الذين يرتفعون عنهم بأنهم يوحى إليهم فإن الزواج يأتيهم فلا يرفضون.

ومحمد لم يخالف السابقين وهم العظماء، وهذا الذي فعله لم يكن فيه بدعًا.

لكننا نعود فنقول مرة أخرى أيهما أكثر حاجة منه للآخر؟ الشباب صحة مغبون كثير من الناس فيها، وربما تدفع الطاقة المتولدة عنه - ما لم يصحبها تهذيب وتربية - إلى الغرور والاندماج، بل وأحيانًا إلى الهمجية الهوجاء.

وكم من فِعال فعلها الشباب ندموا عليها حين كبرت سنون عمرهم وتقدمت بهم الحياة للأمام.

يستطيع الشاب أن يقف متشامخًا بطاقته، ويتحدى العالم ويقول: كلكم في حاجة إليَّ، أما أنا فلا حاجة لي بكم.

كل المرضى يحتاجون إلى الدواء، والشيوخ يخشون المرض ويكادون يختزنون الدواء، أما الشباب فهم يسخرون من المرض ويحتقرون الدواء، وقليل ما يصاحب الشاب رجلاً في مثل سن أبيه، وإلا اعتبر الأخير نفسه العاقل الحكيم، الخبير، والآخر لا يرضى إلا بالندية ولو احتج عليه لقال له - ولسان حاله يصدقه - أنا أكثر منك خبرة ودراية بالأمور.

والمرأة عندما تكبر سنها فهي تحتاج لأبنائها، وقال الحكيم: ننفق على البذور في الصغر ليردوه لنا في الكبر. هل تحتاج خديجة إلى شباب وطاقة وقوة محمد أم يحتاج محمد عطف ومال وجاه وثروة خديجة؟

أقسم - عند اعتقادي - أن هذا وذاك غير صحيح! فلم يتميز محمد قط بالقوة عند خديجة، ولا هو من المشهورين الأقوياء، ولا يقارن بحمزة عمه صائد الأسود وفي حرب الفجار كان مع المتحاربين ولم يحارب، وهو وإن كان قويًا، فإنه يميل إلى الرحمة

والأناة وإلا ما فضّله زيد على أهله جميعًا.

وهـي ليسـت سـيدة ذات مـال فحسـب، فكـان يسـتطيع أن يكتسب أي قدر من المال ويتزوج به أية فتاة، ولـو هـبط نسبها عنه درجة، فكثيرًا ما يتطلع أهل الثروة إلى مصاهرة البيوتات الرفيعة وإن قل مالها، وإن قيل إن هذه الزيجة تقل عن زيجة خديجة في الحسب لقلنا لكنها تزيد في الشباب.

لقد رأت خديجة في محمد إشباع كل مطالب الروح وصفات وفضائل قوم كأنهم مع السماء، لا في هذه الأرض المملوءة بألوان الدنايا والخطايا.

ولقد رأي فيها امرأة تحتاج إليه ولن تكلفه من أمره عسرًا، وحالما يرغب في الخلوة لن تمنعه.

المتأمل لهذا الكلام الذي نسطره يرى أن الكفتين متساويتين وأن أحدهما لا يمتاز عن الآخر كثيرًا حتى نرجح أن الآخر كان أكثر حاجة إليه.

لكننا نقول إن ما ذهبنا إليه في الحديث عن آدم والمرأة أم الإنسانية حواء، أنهما معًا ارتكبا الخطيئة. فإن الحديث الإلهي في الكتب المقدسة اتجه إلى آدم – لا ليحمله المسئولية – لكن ليحمله العدائية لإبليس، وعلى هذا، يقول البعض إن الوحي الإلهي في تاريخ الإنسانية كلها جاء لرجال فعزف عن النساء وقد سمعت ذات مرة أن رجلاً قد استشاط غضبًا لأن الشيخ الوقور وهو العالم الجليل قد انحاز في خصومة بين فتاة وإخوانها الذكور إلى جانب الفتاة، وحيث رأى تفوقها العلمي ادعى لخروجها للجامعة، وفشلهم أدعى لإفساح المجال لنبوغها، فهاجمه أحد تلامذته حيث يرى – التلميذ – أن الفتاة مهما تفوقت فهي أقل من الرجل، فاحتج الشيخ عليه بأن رجلاً ما مهما بلغت مكانته فلن يصل – ما لم يكن نبيًّا

– لمكانة مريم بنت عمران لمجرد كونه رجلاً.

أقول هذا لأعلم الناس أن فضل الأنبياء لا يعلوه فضل آخر، وإن كان هناك فضل أعظم يأتي للأنبياء، فهو لمجرد أنه يوحى إليهم، وكذا فإذا أوحي لامرأة فهي في مكانة تلي النبوة مهما كان قدر بعض الرجال، وعلى هذا عوَّلوا في تصنيف البشرية بمدى الاتصال بالسماء، ومحمد متصل بالسماء ومعه قرآن ووحي ورسالة، وجاء يحذر وينذر ويبشر.

أما خديجة فلم يكن يوحى إليها، ولسنا نسوق هذا للتفضيل بينهما، فلا تناطح امرأة مكانة أي نبي، فما بالنا بالخاتم، ولكن الحديث الآن عن محمد الذي يقولون إنه يتيم أبي طالب، لا محمد النبي.

ونرى مع التاريخ والسير أن زواجه منها جاء لرغبتها وبإرادتها وأموالها.

لكنا نجيب عن سؤالنا بقولنا: إن خديجة كان لها ما زال دور في الحياة، وهذا الدور لم ينته بالترمل وكونها الطاهرة الحسيبة النسيبة الغنية، وهذا الدور استلزم وجود محمد في حياتها، ولولا محمد ما كتبنا عن خديجة، كما لم نكتب عن مريم إلا لوجود يسوع.

هل انصرف الحديث القرآني عن خديجة لهذا الذي نحن بصدده، ولقد تحدَّث الوحي عن عائشة وعن حفصة وزينب بنت جحش والتي وهبت نفسها للنبي، ثم يجملهن جميعًا وغيرهن أيضًا في خطاب واحد (انظر الأحزاب ٣٠)، ولا يتحدث عن خديجة حتى بعد موتها وتسمية عام موتها بعام الحزن؛ لأن وضعها – الاجتماعى – بالنسبة لمحمد ليس كهؤلاء.

إن خديجة ترجح هؤلاء جميعًا، والمتأمل لآيات الوحي يجد أنها

لا تضيف لهؤلاء الكثير، بل ربما - باستثناء حادث الإفك لابنة الصدِّيق - ينقص منهن، وغالب الوحي فيهن جاء تشريعًا.

وكانت خديجة تُسلب كل شيء في الحياة في الوطن في المال، بل في الولد ولكنها تحظى بمحمد، وقول بعضهم إنها أسقت عمها الخمر ليوافق، وأهدت محمدًا المال وصممت على الزواج به، كل هذا الذي نقبله والذي نرفضه - وباستعارتنا لمصطلحات الفقه - فهي فاعلة (الإيجاب) وهو فاعل (القبول).

إن المصروف عن اهتمامات البيئة المكية في لهوها ومرحها وضوضائها وعباداتها بمثل هذه الطريقة كمحمد يمكنه ألا يفكر في الزواج أبدًا، وقصارى ما يمكن أن ننتظره منه، أن يجيب إذا دُعي إلى ما لا يرفضه ذوو الفضائل في حال الزواج.

لذا نقول إن محمدًا يرجح خديجة وهي التي كانت بحاجة إليه، إن عملية المخاض التي استغرقتها ميلاد محمد عليه السلام قد استغرقت من البشرية مئات الآلاف من السنوات، لكن ميلاده لم يدم طويلاً، فهو لم يعش بيننا يقودنا كالعميان إلى الطريق، بل لجأ إلى حيلة أخرى هي أن ينير لنا البصائر؛ حتى لا يحتج عليه من لا بصر عنده، ثم وضع هذا القبس من النور ومضى إلى حيث أتى وتركنا نعاني سكرات ضميرنا، وانزياحات تراكمات ما كان قبله.

لله دُر هذه التأملات!

لم تكن خديجة تحتاج إلى الرجل الذي يُريحها من نصب العيش، ويكفيها مئونة الحياة، ويكد ويكدح لأجلها ولم تكن وضيعة فيرفعها، ولم تكن امرأة متأججة بالشهوات، فتحتاج لمن يشبع عندها تلك الرغبات، ولم تكن تخشى عاديات الزمان ومر الحدثان فتحتاج لمن يؤمنها، ولو احتاجت لكل هذا أو بعض منه، فلم يكن غناها عنه في محمد، بل كل هذا لم يكن عند محمد

منه شيء سوى رجولته، نستطيع أن نقول: إن خديجة كانت تشع هذا كله. وسوف يقف محمد في التاريخ الديني إزاء غيره من الرسل والأنبياء – كموقفه هنا من خديجة – ولسوف تتخذ خديجة نفس موقف البشرية عندما تستقيم فطرتها، فتبحث عن الهداية فلن تجدها فيعزفون عن الدنيا، وأنها قد أغلقت على نفسها الحياة حتى تجد محمدًا. فعند محمد – أيتها الإنسانية – ما ليس عند غيره، وما يمكن أن يعطه محمد لا يمكن أن نجده عند غيره في الأولين أو الآخرين، وإن كان يمكنه أن يعط ما يعطيه الآخرون.

ولست أود الحديث عن محمد إلا بالقدر الذي يقتضيه المقام في الحديث عن خديجة.

نقول إنها هي الأحوج إليه، وإن حاجتها والبشرية إليه سواء، لكنها اهتدت إليه مبكرًا أما الإنسانية فترجح عندها الاهتداء إليه، بعد إعلان اتصال السماء به بعد اتصاله بخديجة.

هل أخذت من محمد ما ليس عند غيره، وتركت ما عند غيره؟

كلا.... بل أخذت هذا جميعه.

فإن كان محمد شابًا فانظروا إلى هذه الذرية كيف أنجبتها منه، لا بد وأنه شاب ذو طاقة هائلة، وأن سعادتها بجواره جعلتها تنسى سنها وهرمها وعادت إليها من جديد صبوتها.

لا بد وأن خديجة قد نسيت سنين عمرها بعد زواجها به، أليس الناس في جوار الجنة لا يهرمون، ولا تمر بهم عاديات الزمان، فإنها هناك تحياها أو تحيا فيها الجنة ذاتها.

هل المكافأة مهما عظم قدرها أعظم من المكافأين بها؟ أم هل الذي يُمنح وسام أعظم من الوسام؟

نسأل الآن هل الجنة أعظم من داخليها أم هم أقل منها؟

قال بعض المتصوفة إنهم خير من الجنة، ونظروا إليها على أنها مجرد ملذات ونعيم مقيم خالد خاطب الله في بعض المناطق بهذا النعيم البشر في مادية البشرية، ولكنهم لا يريحون الجنة، فحالة الفناء والاتصال التي يصلون إليها في الدنيا أعظم عندهم من الجنة ذاتها.

ولقد عُميَّت الجنة – واسمها يدل على ذلك – وقيل فيها ما لم تراه عين ولم تسمع عنه أذن ولم يخطر بقلب بشر. وإنها درجات عالية، وأن الغمسة فيها إذا منُّوا بها على أشقى أشقياء أهل الأرض ثم سألوه هل رأيت شقاءً قط؟ يقسم أن لم ير أبدًا.

أي أن الغمسة فيها تُنسي كل شقاء الدنيا، فما بالنا بها وفردوسها والوسيلة والفضيلة.

لكنا نقول أيضًا: إن النعيم لا يمكن أن يزدد عن المنعمين، وأنهم يستحقون فوق ذلك.

يحتج البعض ويقولون: لكن الله هو الذي خلق النعيم ووضعه في الوحي، فكيف يكون النعيم الذي تحدث عنه كثيرًا جدًّا أقل شأنًا من الإنسان؟ نجيب بهدوء: ومن الذي خلق الإنسان؟ ولماذا جاء ولمن جاء هذا الوحي حتى إن هذا النعيم الذي ترونه لا يجعله الله مكافئًا للمؤمنين الذين يحظون به، حتى يعلمهم بالنعيم الحق، وهو الرؤية العظمى حيث يأذن لهم بأن يروه، وقد أكثروا في الحديث عن هذه المرتبة، وذهبوا – مثلاً – إلى أن الجنة إزاء رؤية الله تعالى لا تعدل حبة رمل في صحراء العالم، أو قطرة ماء في مياه الدنيا كلها.

لهذا كله لا يعدل النعيم المنعمين! ولا يعدل الشقاء أهله!

هل خديجة كانت في هذا كله؟

نعم كانت ترى الجنة، وما شظايا القهر حولها من المضطهدين

لزوجها – العظيم – إلا مهر هذا العمق الإيمانى الذي تحياه.

إن خديجة استطاعت أن تبتعد عن الرجال قليلاً أو كثيرًا، ففهمت ما يمكن أن يكون أعظم شيء في الرجال. سمعت قريبًا طبيب عيون يخبر مريضًا أنه لا يدرك الشيء حال قربه منه.

كذلك خديجة – بل وغيرها رجالاً ونساءً – لا يرون الفضائل إلا بعد النأي عنها، غالبًا اختيار دون القهر، ولذا فلم يكن عزوفها عن الرجال يبعدها عن الرجال، بل يقربها أكثر.

وكثيرًا ما أستطيع التفكير في الشيء الذي لا أكون بصدده مباشرة عن الأشياء التي أجاريها، ولست في هذا بدعًا، ولا أدلل بنفسي هنا على حال خديجة.

لكن كثر المتقولون في هذا الزواج أنه جاء طمعًا في المال، وقيل بل جاء طمعًا في الراحة والهناءة والحسب والرفعة من جانب محمد إذا تزوج خديجة!

وقال البعض: إنه تزوجها فرارًا من الفقر المدقع، وذل الحاجة، وألا منجاة له من هذا إلا بذاك.

وإلا لِمَ يرض بالزواج من عجوز شمطاء كما قالت بعض النسوة فيما بعد، وهو الصبي القوي؟

وقالوا: إنها المراهقة المتأخرة، والحنين إلى الرجولة وإشباع الشهوات، وإظهار النفوذ والسيطرة عندما تمرر إرادتها على قومها، وإحساسها بالقوة عندما تتزوج من هو دونها رغم أنف الكارهين!

ودافع البعض بأنه ليس شهوانيًّا، ولو كان كذلك لتزوج حال شبابه بكرًا جميلة، وهو الذي قال لجابر أحد صحابته: هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك.

هم دافعوا عنه هنا في دفاعهم عن كثرة زوجاته، ثم دافعوا عنه

في الكثرة بأنها تحجيم له، فلا يستطيع إطلاق إحداهن والتزوج بغيرها، أما الرجال جميعًا فيطلقون ويتزوجون ولو ألف مرة.

وقالوا إنه قد وسَّع عليه في العدد، وضُيِّق عليه في المعدود، وهذا سلب لحريته أكثر من الناس ولكن قليلاً هم الفاهمون.

لكن ما بالها تتحدى الجميع لإشباع رغبتها، إن الزواج من محمد بن عبد الله لا يرجحه كونه النبي المنتظر كما رفضنا رؤياها وتأويلها، لكن فطرتها هي التي هدتها لذلك.

ولنتأمل تلك الفترة التي عاشتها خديجة بين الترمل الأخير، وزواجها من محمد، المؤرخون لا يحسبون الفترة تحديدًا، ولا سبيل إلى ذلك حقيقة، لكنها على كل حال ليست قليلة فهي عدة سنوات، قد تصل إلى عشر سنين بل قد تزيد وربما تزيد جدًا.

ثم هي خرجت من هذه العزلة وصممت على الزواج بهذا الشاب، ولم تخبر أحدًا بهذا التصميم وأسبابه، فليحسبوا هم ما يحسبون.

فلقد قال محمد معه الصِّديق لرجل عندما سألاه عن عدوهم قبيل بدر الكبرى عندما سألها من أين أنتما قال: نحن من ماء - فهو لم يكذب ويفهم الرجل ما يفهم.

كذا خديجة، ولو أننا رحنا نبسط الأسباب الحقيقية التي رجحت كونها ترغبه إلى هذه الدرجة، ونصل بها إلى أفهام الناس بمعادلة رياضية أو كيميائية لكان علينا أمران هامان:

الأول: أن نحلل كيمياء الروح ونشرح تكوينها كما نشرح ونحلل كيمياء الجسد، وهذا مستحيل لا عليَّ بل على البشرية جميعًا.

الثاني: أن أحلل ما تحتويه روح محمد ونفس محمد وأخلاق محمد، وصفات محمد خاصة المضمرة منها، وهذا أيضًا مستحيل عليَّ لأني ومعي كل الخلق لا نستطيع - إن قرأنا عنه مليون كتابًا

– أن نحيط به معشار عشر ما أحاطت به خديجة، (ذلك أنه كما يهم وجود تلك الروح في محمد يهم بالقدر نفسه وجود مستقبلات لها عند خديجة) وإن كانت تصفه يوم بعثته بكرمه وصدقه وحسن معاشرته وجواره وصدق تدينه، فهي تُلح على شيء أهم من كل ذلك وتقول: والله لن يخزيك الله أبدًا.

هذا في التحليل قسم وجزم.

وهي لا تُقسم على محمد بل تقسم على الله نفسه فتقول: والله لن يخزيك الله أبدًا.

أي أنه قد توجب على الله ألا يخزيك يا محمد أبدًا، لا لهذه الصفات التي تعددها من إكرام وحسن معاشرة.

بل لما رأته فيه عندما صممت على الزواج به قبل الاتصال به.

إن محمدًا يقف كإنسان فريد وسط الناس جميعًا، ولا نقول إن محمدًا يرجح البشرية من آدم إلى آخرها فحسب، بل نقول إنها لا تساوي قلامة ظفره، لا لما عنده لله، بل لما عند الله له ويتجلى ذلك في الروح لعل الله أخفاها لمثل هذا، لن نفصل القول هنا أكثر من ذلك، بل في سفر خاص بمحمد.

لا نريد أن نبتعد كثيرًا عن خديجة، لعلها تحب معنا الحديث عن محمد تلك الربانية التي جاءت في شكل بشر، لكننا نعود إليها وقد تزوجته، وسكت التاريخ طويلاً عن أشياء هامة حتى جاءت الليلة التي جاء فيها له الملاك يقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾.

كم مرت بنا أحاديث عن النساء، لكننا لم نقف عند حديث عن واحدة منهن – أقصد زوجات الأنبياء على هذا الأمر، فهذا محمد مع خديجة قبل الزواج ثم قبل بعثته وأثنائها.

اليوم صار محمد نبيًا مكلفًا بإبلاغ الناس ولا يستطيع إلا ذلك.

وإن ماتت خديجة قبل هذا اليوم فلن نصفها بأنها زوجة نبي.

لكن الأنبياء السابقين لم نقف لهم على عرضهم الرسالة على زوجاتهم، ولم نر ما ردهن سوى علمنا بكفرهن أو إيمانهن المتزعزع أو الإيمان الثابت أو الإغضاء عن الحديث عنهن تمامًا كنبوات كثيرات لم نستمع لوحي عن زوجاتهم.

اليوم يعود إلى بيته يخبرها بهذه الزلزلة، وكأنها تطمئنه وتقول: والله لن يخزيك الله أبدًا.

وتذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي يخبرها أنه إن كان هذا الناموس الأعظم فلقد صار محمد نبيًّا، هذا ينفي تأويله لرؤياها المزعومة، فلو كانت رأت شيئًا أوَّله ورقة بأنها النبوة ما ذهبت إليه، ولا نستطيع تكذيب ذهابها إليه عندما بُعث محمد، ونصدق الأولى لأن الآخرة منسوبة إلى محمد، وقد ذكر اسمه فيها وليس بالإمكان مجرد الشك في ثوابت يقينية لأجل التيقن من افتراءات!

الجميع يذهب إلى أن خديجة امرأة كملت لأنها صدقت محمد فور الإعلان، والبعض ظنها كملت لأنها كفرت بآلهة قريش عندما كفر بها محمد، وهؤلاء لا يعقلون شيئًا، فلم يؤمن بآلهة قريش، ولم تؤمن بها خديجة حتى تكفر!

ولعل البعض أكثر من القول إن محمدًا كان يعبد ربه على دين الحنيفية السمحاء، وكذا زوجه.

بل إن كمال خديجة – إن قلنا بذلك – جاء نتيجة تصديقها لمحمد قبل أن يتفوه محمد.

هل سنتغاضى من كل المصاعب التي اجتاحت محمدًا وخديجة وما ألم بهما في قريش من عداوات وحروب ونطوي الأيام وعشر

سنوات بعثة في مكة أو أكثر قليلاً، ونصلي عليها ونذهب إلى غيرها الآن؟ ونكف هنا عن التأمل، أم أننا سوف نتحدث عن سنواتها الطوال في الطور المكي للدعوة المحمدية ونزداد تأملاً؟ نخشى ألا يكون لها الجانب الأكبر من ذلك، ولكن الإغضاء عن لحظة أو هنيهة واحدة من عمر خديجة، وخاصة في البعثة المكية، لتمثل الإغضاء عن أروع الصفحات في الكفاح البشري، هذه السنوات - سنوات حرب الشرك العظمى - فيها حارب الوحي والرسول الخاتم وإياها الشرك ولم يحابوا المشركين.

لنتوضح هذه النقطة.

يلاحظ كافة الدارسين للرسول الخاتم وسيرته، أنه عاش في مدينتين الأولى: مكة وقضى فيها أربعين سنة قبل البعثة، ثم ثلاثة عشرة عامًا بعدها، ويثرب التي سميت عندما هاجر إليها المدينة المنورة، أخذت الإسلام دينها، وصار الرسول الخاتم رئيسها وحاكمها العسكري، والمدني والروحي، وكل أمورها ترجع إليه.

ويقسم دارسو القرآن القرآن إلى مكي ومدني، فكلما تصفحنا في المصحف، نقرأ بجوار اسم السورة وعدد آياتها نوعها مكية أم مدنية، وبعضهم يقول لك إن هذه الصورة، مدنية إلا الآيات كذا وكذا فهي مكية.

والفروق بينهما جدً كثيرة، من حيث المحتوى والشكل وطريقة التصوير ونوع الخطاب والمخاطبين وغير ذلك كثير، لكني أود أن أؤكد هنا على أن الطور المكي كله - سيرة وقرآنًا - قد اتخذا طريقهما لمحاربة الشرك.

والطور المدني - سيرة وقرآنًا - قد اتخذا طريقهما لمحاربة المشركين، وفرق بينهما عظيم.

ففي المدينة يحتاج الفارس المقاتل إلى زوجة تهوِّن عليه ما لاقاه من عذاب ونصب في الميدان، وإن استشهد احتسبته عند الله، فهو هنا يقاتل عن عقيدةٍ لا مجال عنده للشك فيها، والدليل واضح على أنه يُقدِّم روحه فداءً له، ومن ذا يضمن لنفسه النجاة من ساحة الوغى، وأنه حتمًا سيعود، فقد يعود الجبان - إن ظننا أن جبانًا يخوض المعامع - ويُقتل فيها أشجع الشجعان.

نقول: في المدينة رجل يحارب أعداء دينه، فإن انتصر فبها ونِعمت، وإن قُتل فهو خير له.

أما في مكة فالناس يبحثون عن دين لهم جديد، يخالف ما شبوا عليه، وألفوا عليه آباءهم.

إنهم يحاربون بلا سلاح هذه الحرب - لا أود الخوض فيها طويلاً - لكن في المدينة بعد النصر هناك مغانم قد تجعل البعض يدخل المعركة يغنم طمعًا، وهناك أسباب أخرى للخوض في المعارك، فهذا صهري وهذا حليفي أو جاري في معركة، قد أحارب معه وأنا لست على دينه، وكثيرون خاضوا حروبًا في الطور المدني وكانوا مكرهين عليها. وفي أهم وأولى المعارك وجدنا أسباب الحرب مادية، ولإنقاذ العِير، فمن لم يستطع الخروج للحرب أرسل غيره، ثم كُتبت الحرب على المسلمين بنص مقدس في مواطن من الوحي كثيرة. (انظر البقرة ٢١٦ - ٢٤٦)

أما في مكة، فأين هم من هذا كله؟ إن الحروب كثيرة. هذا رجل واحد يخرج من بيته، وهو الهادئ الرزين الذي لم يسمعوا أنه التمس يومًا الزعامة، بل حتى لا يسلك سُبلها عندهم، يخرج من بيته بدين جديد للجميع، ليس له أي معتنق يساعده أو يؤازره، في هذه الحروب.

ثم إنه لا يخرج عليهم بمبدأ سياسي أو اقتصادي أو نظام جديد

أو قيم، أو يدعو لفضائل معينة أو ينهاهم عن منكر فعلوه، أو يسفه لهم مشوراتهم، وانغماسهم في الترف والدنيا.

بل يقول أول ما يقول، إنه رسول الله الذي خلق السماء والأرض، وهم يسمعون عن الله، ولكنهم يخشون كسرى وقيصر أكثر منه، ثم يقول إنه جاء بين يديه عذاب ونذر، اتركوا ما كان يعبد أباؤكم، واتركوا هذه الآلهة التي لها تسبحون وتسجدون، وهيا انتقلوا من هذه الحياة إلى حياة أخرى، فحياتكم هذه ليس فيها الله إلا بشكل تجاري.

نعم هم يعظمون الكعبة؛ لأنها تُدر عليهم حجيجًا في مواسم يرزقون منها، وتنمو معايشهم وتسمو مكانتهم بين القبائل، فلا يتعدى عليهم معتد.

يقول لهم: اتركوا هذا كله، وإن خالفتم العالمين، وإن باتت حياتكم في شقاء، ونكد، فليست هذه هي الحياة فإنكم ترون موت الناس، أما في الحياة الأخرى، فليس هناك موت، وهذا الذي أنتم فيه ليس نعيم، فالنعيم الذي أعددتموه أنتم يفنى كما تفنى جسومكم، أما النعيم الذي شيّده الله لا ينتهي، لأن بقائه تعالى لا آخر له فيقولون له: تبًا لك.

والمحارب في الطور المدني – دومًا – يخرج في زمرة جيش أو كتيبة، يلقى جيشًا أو كتائبًا، فهو واحد في جماعة، أما في الطور المكي فالمؤمن بدعوة محمد يحارب العالم كله، فإن كان ضعيفًا فعلوا به الأفاعيل، وإن كان ذا مكانة أكسدوا له تجارته، وجعلوه عاريًا من المال والتجارة حتى يعدم فيعود إليهم، ولم يكن يجرؤ على إعلان الإيمان سوى ذوي الرهط، وقلما كانوا يسلمون من العذاب، بل إن الرسول نفسه كان لا يسلم ولا حتى خديجة، كانت أم جميل تتفنن في مضايقتها. فقد منعت

ولديها من التزوج ببناتها حتى قالوا: ردوا لمحمد بناته.

وكانت تنقل نار الفتنة بين خديجة وغيرها.

ما وضع محمد في المدينة؟

أليس هو الرسول، ومن كان أو كاد أن يكون ملكًا على يثرب يؤمن به كرهًا؟ حتى إن الوحي يوبخ المؤمنين – لمجرد – رفعهم أصواتهم عنده والجهر له كما يجهرون لبعض.

أما في مكة فالحال لا يحتاج إلى توضيح، حتى إنهم قد ضُيِّق عليهم حتى هربوا منها، وهذا هو أبو بكر يمنع عنه الموت خنقًا عند الكعبة، ولن نعدد صور الإيذاء فإنها كثيرة ومسطورة تسطيرًا في كتب أخرى. في المدينة – فلانة زوج النبي – إذن هي حرمه وعرضه لا .... بل هي أم المؤمنين مصانة صيانة الأم، وكثيرات لم يكن له فيهن إرب، وهن كذلك، لكنه مجرد التشريف به فوق كل شيء.

أما في مكة فيا لويل زوجة الرسول من المكيين جميعًا. لذا فإنها وحدها تزيد مكانتها عنهن جميعًا، ولن يغضب الرسول الكريم الحليم لأحد كما كان يغضب لها ومن أحب نسائه إليه.

ولم تدخل في تخيير الله للنساء بين الدنيا والآخرة، بل هي أعظم من هذا بما عندها لله ورسوله.

أيها الناس إن خديجة زوجة لو جعلنا كل زوجات الإنسانية ولنفرض أنهن مائة مليار زوجة فيتفاضلن، ويتعالين ويظنن أنهن ملأن الأرض شموخًا ومكانة وشرفًا وسموًا، فإنها حال أن تخرج إليهن، لا يسع الجميع سوى التطلع إليها كثيرًا، ولو تطلب الأمر السجود لها لما تخلفت منهن امرأة قط – وأنا بهذا زعيم.

نعم، لا نقول إنها تستمد هذه المكانة من زوجها، فهذا أيضًا أمر له قدره، وهو فوق كل قدر، لكننا نكتب الآن من واقع غير

مسلم لما يأتيه كالأطفال عند تربيتهم دينيًا.

هل خرج محمد للطائف إلا بعد موتها؟ وما أخرجه؟

كان يلقى كل يوم العذاب والإهانات تترى عليه، فكان منه أن يسجد لربه فيخفف عنه، ثم يسكن إلى زوجه فتتحمل عنه ما يكابد، ثم ماتت، فلم يعد يشعر أن أحدًا يشعر به.

لا يغرنا أن زينبًا ابنته تزيل عنه التراب وهي تبكي. فالبكاء ضعف يهيج النفوس، وخديجة لم تكن تبكي! فهي التي تمده بالقوة، بل تقول: اصبر فلن يخزيك الله أبدًا، كأنها تثبت عزمه إن وهن ولست أدرى من أين أتت بهذه الكلمات فوالله إنها لقوية، وما جرأني للكتابة عن خديجة سوى هذه الكلمات، نعم اصبر فلن يخزيك الله أبدًا.

أشعر أن خديجة لم تكن تنتظر أن يجيء الروح الأمين للرسول ويخبره أن الله قد أعدَّ لخديجة قصرًا في الجنة من قصب ليس فيه نصب.

ذلك أنها قد اطلعت على مكنونات الجنة وفردوسها الأعلى في روح محمد حين اختارته، وقد كنا أكدنا أن النعيم – وإن عظم ثراؤه – يقل عن أهله مهما كانوا فما القول إذن في محمد، لكأنه حين يسأل المسلمين أن يسألوا الله له الوسيلة – وهي مكانه في الجنة – لكأني أشعر به والحال يقول: اسألوا لي الوسيلة، فذهابي فيها مرضاة لها.

تهزني – ما زالت – كلمات خديجة، فكأن محمدًا في تأهبه لنزول الوحي وفي خلواته التي يظنها خلوات، وروح خديجة معه ترفرف حوله، تود لو تتعمق بمثل ما يتعمق، تود لو تشاطره هذا الذي يتأمله، تود لو يكون لها مثل قلبه، إنها تضحي بالمال والمكانة وهذا الثراء العريض، تجعل نفسها عرضة للإهانة

والقذف من السفهاء، وما كان العظماء يتجرأوا على فتح أبواب الحديث معها إلا بإذنها لكنها ترضى لا - والله - من أجل القصر من الذهب، بل لقربها من محمد، لقد تمثلت لها الحياة الأبدية ونعيمها في قربها من محمد.

أخيرًا! هل تحققت تلك المقولة؟

في العام الحادى عشر للهجرة النبوية حج الرسول إلى مكة، وقيل كان معه مائة ألف مسلم يلتمسون القرب منه والسماع عنه.

فأخذ يقول لهم ويعظهم، فهل اعترض عليه من هذا الحشد معترض؟

بل يلتمسون منه المزيد، فهل أخزاه الله.

وقف قبلها بعشرين سنة أو أقل يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، تملكوا بها العرب وتحكموا بها العجم وتدخلوا بها الجنة. فيقولون: تبًا لك.

وفي عام الحج هذا يقول لهم: كل ربا موضوع وأول ما أضع منه ربا العباس بن عبد المطلب.

فهل اعترض أحد؟ وهل أخزاه الله؟

وحي من القلوب السليمة متصل بربها في السماء، ولولا هذا الاتصال لانهارت الأرض، لا تحكم الأرض بنظم أو بقوانين، قدر ما تحكم بالاتصال الروحي هذا.

سمعت فتاة تقول لي يومًا: كل لذة يعقبها ندم إلا لذة القرب من الله!

وها هي خديجة قد أقسمت على الله فأبر قسمها في أعظم الرسل.

أردت لهذه التأملات ألا تطول، وتكون كالبرق الخاطف، بإعطاء لمحة سريعة عن النساء، لكن لو طاوعت قلمي لاحتاج مدادًا كثيرًا قد أعجز عنه، فهيا نلملم حاجياتنا من هذه المنطقة الطاهرة، ونرحل إلى المدينة لنتحدث عن آخر سيدة من نساء الحياة

نقف عندها قليلاً.

نخشى أن نقارن بين خديجة وغيرها، وأن تتفلت منا كلمات شديدة الوقع أو لهجة صارخة، تقودنا إلى التقليل الذي قد يصل إلى التحقير، لكني إن فعلت فيشفع لي حبي لخديجة، فإن كانت بقية زوجات الرسول أمهات المؤمنين، فخديجة أم الإيمان نفسه! وأقول: في الطور المكي من آمن فلا يشوب إيمانه أدنى شك، وهل تنزلت آية نفاق في مكة؟ أما في المدينة فالأغراض كثيرة منها أن يحفظ على نفسه حياته، وهذا كعب بن زهير يقول:

مهلاً هداك الذي أعطاك القرآن نافلة فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني بسعي الوشاة ولم أذنب ولو كثرت عني الأقاويل

أقول أخيرًا: إنها وقفت مع محمد في حربه ضد الشرك بالله، فكلها لله، وما دام الله باقيًا - وسيظل - فسيبقى في الحياة شرك بالله - إذن ستبقى خديجة ويصلها منا - مني بصفة خاصة - الصلاة والتسليم دومًا.

الفصل العاشر

عائشة بنت الصديق

"والله يا رسول الله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، ولن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، بل نقول لك: اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون "

(من حديث للأنصار قبيل معركة بدر الكبرى)

"أقول لك يا رسول الله وتقول لي أنا؟ والله لن تدخل المدينة حتى يأذن رسول الله" **(عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول لأبيه)**

"يقول لك رسول الله: فارق زوجك"

أأطلقها؟ أم ماذا؟

لا، لكن لا تقربها. **(حديث لأحد الخوالف)**

"لو هلكت أنا لهلك فرد واحد، ولو هلكت أنت لهلكت الأمة كلها"

(أبو بكر في حادث الهجرة).

"ما تظنون أني فاعل بكم؟

أخ كريم وابن أخٍ كريم.

اذهبوا فأنتم الطلقاء. **(حديث للرسول مع أهل مكة عند فتحها)**

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب ٥٦).

﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ (الحجرات ٢).

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة ٦٧).

❖❖❖❖

هي النقلة الكبرى في تأملاتنا هذه، نعرف قبلاً – بأننا قد فرضناها على أنفسنا ولم يفرضها علينا التأمل ذاته أو مقتضيات الكتاب.

عائشة بنت أبي بكر الصديق.

هي المرأة الوحيدة التي نتحدث عنها وقد امتدت حياتها لما بعد الوحي الإلهي، وانتهاء الحديث بين السماء والأرض.

شهدت مع الرسول بضع سنوات، وكانت قد امتازت عن غيرها بمميزات أوصلها بعض كتّاب السير إلى ثلاثين ميزة.

ويكفيها فخرًا أن الرسول رأى في منامه أمرًا بزواجها غير مرة، وإنها فوق كل ذلك بنت الصديق الرجل الثاني في دولة الإسلام، ورفيق الهجرة وأول من آمن من الرجال، وأول خليفة للرسول.

وهي البكر الوحيدة التي تزوجها الرسول، فكانت تتدلل عليه، ولما اتهمها بعض المنافقين بالإفك جاءتها براءتها من السماء، فلم تشكر إلا الله في آيات يتعبد المسلمون بتلاوتها. (سورة النور ١١)

ولها غير ذلك الكثير، قد يناطحنا وهم أن كتابتنا عنها الآن هي نتيجة حتمية للمقارنة بينها وبين غيرها، لكننا سنحاول ألا نفعل فليست المسألة مقارنات، فهي لم تدخل في الكاملات عند الرسول الكريم، وهي التي نبحتها كلاب الحوأب، وقالت في

عثمان قولاً ثم عدلت عنه وحاربت عليًا وهو مع الحق، وهي التي راجعت الرسول عند أمره لأبي بكر أن يصل بالناس، وهي... وهي... إلخ.

لكن هذه ليست نواقص أو مثالب نعددها لها فالمعصومون قلائل!

لكننا نود الكتابة خارج الوحي، ربما هذا المثال الوافد إلينا يكون أقرب من غيرها.

أوردنا في بدء مقالتنا هذه بعض الأحاديث التي تُرينا مكانة محمد في مجتمع يثرب، وكيف صار بعد أن كان في مكة يقول وهو على عتباتها "والله إنكِ لأحب البلاد إليَّ ولولا أن أهلكِ أخرجونى منكِ ما خرجت"

فهو في مكة طريد، شريد، مُهان، مضطهد، موسوم بالكهانة والشعر والنواقص دون كمالاته التي اشتهر بها.

رغم أنهم يعلمون أنه بالحق يسير وإليه يمضي، ذهب إلى المدينة برفقة أبي بكر الصديق، فخرجت يثرب لتستقبله!

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع..... إلخ

لم يهاجر الرسول من مكة حتى كان كل منزل في يثرب قد دخله أمر الإسلام أو الإسلام.

وبدأت الصراعات به وله وحوله.

وعندما هاجروا ابتنى مسجدًا، وأصبح المسلمون يشكلون دولة، وعندما هزموا المشركين في بدر باتوا حقيقة.

وعندما تزلزلت الأحزاب وفروا، وقضى على بني قريظة صاروا أمة، ولما تصالحوا مع قريش عند الحديبية اعترف بهم الجميع، ثم

عندما فتحوا مكة حكموا العرب، وبعد حُنين ذهبوا يؤدبوا أتباع مملكة الروم، ولما مات الرسول وادعيت النبوة قضي على مُدّعيها جميعًا، ثم خلص المسلمون لفتح الأمصار في العالم المتمدين آنذاك.

ذهبت إحدى نساء المسلمين للرسول بعد رحيل خديجة تستأذنه في أمر زواجه فلن يبق بلا زوجة، فخطبت له عائشة لصغر سنها، وزوّجته سودة بنت زمعة.

قيل في أمر سنها عند خطبتها وزواجها كثيرًا، فقيل تزوجت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، ودومًا عندما يتزحزحون فوق ذلك يشفعون قولهم بأنه مرجوح.

ففي البيئة العربية تحيض المرأة قبل العاشرة أو في حواليها بعضهم قال: لما قبض الرسول لم تكن قد بلغت العشرين بعد.

لكنها عمَّرت بعده كثيرًا، لذا كانت تأملاتنا حولها!

ابنة أبي بكر الصديق.

ذهب بعض رواة الحديث إلى أن عائشة قد روت عن الرسول كمًّا هائلاً، وأنها كانت تحفظ عنه أحاديث كثيرة، وكانت عالمة وفقيهة، تفهم في اللغة والشعر والأدب والفقه، حتى قال عنها زوجها "خذوا عن هذه الحميراء نصف دينكم" ربما كان يقصد أحوال النساء الخاصة التي ربما يتحرج الرجال (وهو أعظمهم) عن الحديث في مثلها.

ومكانة عائشة مكانة غير مهملة أو منسية، ولعلها أكثر النساء ذكرًا في القرآن، (النور – الأحزاب – التحريم) ولعل كثيرًا من الحوادث ارتبطت بها في حياة الرسول وبعدها، من قبل معركة الجمل وعدائها لعثمان في نهاية عهده، ثم حربها لعليّ.

ونحن حين نقرأ عن عائشة تسرنا القراءة عنها لأسباب كثيرة،

لعل من أهمها أنها حظية الرسول، وأن الزوجات الأخريات يعرفن لها مكانتها عنده.

فكن يتنازلن عن حقهن في رجولة الرسول لها، وكان يرضى منهن بذلك، وهي زعيمة أحد الحزبين من الزوجات، ولأنها فتاة غرة صغيرة، ولأنها تحفظ للأمة من أقوال الرسول الكثير ولأنها عند ربها مبرأة من النقائص، ولأنها امرأة خاضت معارك حربية عظيمة، ولها دور عظيم في التاريخ الإسلامي لم نشهده لامرأة سواها، ولأنها هي التي كانت تراجع الرسول، ولأنها... ولأنها... كثيرة هي الأسباب عندنا للقراءة عنها، وأما حين نكتب فنحن لا نُسر بل تعترينا الخطوب.

حقًا قد كان في تأملاتنا السالفة من هن أعظم منها قدرًا، وأجلّ قيمة، لكنها هي الباقية لتشهد عهدًا كله أنين، وأوجاع، فيا ويح قلبي عليها حين تنبحها كلاب الحوأب، فتصرخ وتستغيث لتهرب من هذه المنطقة وهم يجيئون إليها بعشرات الرجال يشهدوا أنهم قد فارقوا منطقة الحوأب، فلا تطمئن أبدًا.

عائشة تزوجت الرسول وهي فتاة تلعب مع بنات الأنصار في المدينة، فأخذتها أمها ومشطتها وألبستها ثوبًا آخر، وهيأتها وجهزتها للرسول، وقيل كان ذلك بعد غزوة بدر الكبرى، وربما بعد أحد أو قبلها بقليل.

كانت بيوت النبي حجرات بجوار المسجد، لا يُسعفنا الخيال لتصوير هذه الحجرات، ولسنا نود أن نذهب إلى بطون الكتب لنجد فيها وصفًا لها، فهي حجرات لقوم يسكنون الخيام، ويأكلون ورق الشجر عند الحروب، ويصبرون على الآلام، وهي حجرات رجل قد عُرض عليه أن تصير جبال مكة ذهبًا له فأبى وقال: أجوع يومًا فأصبر، وأشبع يومًا فأشكر.

ولقد ضُمنّت هذه الحجرات في المسجد النبوي بعد توسعته، ومات الرسول في حجر عائشة أو بين حجرها ونحرها، ولعمري إن هذه المفخرة ما يعدها مفخرة.

آخر صوت نؤمن أنه للسماء في الأرض ينتهي عند عائشة في حجرتها في حجرها، آخر المرائي له في الدنيا ذلك الوجه الصبوح.

ذهب الكثيرون إلى أن حياة الرسول في المدينة كانت أغنى منها في مكة، ففي مكة بدء الدعوة وظهورها وحوارات الكافرين وهجرتي الحبشة، والإيذاء والمقاطعة وموت خديجة وأبي طالب، وذهابه الطائف والإسراء ثم الهجرة. أما في المدينة فتأسيس مسجد يعبد فيه الله على دين محمد الجديد وقتها، وغزوة بدر وأحد والخندق، والحديبية وفتح مكة وقريظة وبني النضير وقينقاع وخيبر والمريسيع وحنين وجدالات مع أهل الكتاب، وفرض زكاة وحج وصيام وقتال، وغير ذلك كثير قد تأصلت في المدينة.

نستطيع أن نقول: إن الرسول في الطور المكي كانت دعوته كلها عقيدة، أما في المدينة فهي عبادات ومعاملات بعد أن تأصلت العقيدة في نفوس المسلمين. وسبق أن قلنا – في بحثنا عن خديجة – إن الطور المكي أخطر من الطور المدني، وأوضحنا الأسباب هناك، لكننا الآن نتصدى للكتابة عن عائشة، وقد نستطرد وتتداخل عندنا الكتابات مع الرسول محمد، ذلك أن عائشة لم يكن لها ذكر لولا زواجها من الرسول، فهذه هي أختها أسماء بنت الصديق، زوجة الزبير بن العوام، وأم عبد الله بن الزبير العائذ بالبيت، والمستجير بالرب، أين مكانتها من عائشة؟

مكانتها من عائشة هي مكانة الزبير من الرسول، ونحن حين نقول ذلك لا نغالي، فنستطيع الآن أن نورد عشرات الأحاديث والفتاوى التي ردت في نحور أصحابها من أبناء كبار الصحابة

لمجرد تدخل عائشة بتعديل هذه الفتاوى، فهي مرجعية لم نجد خلافًا عليها، وبرغم مواقفها السياسية فيما بعد لم نجد من يقدح في نزاهة نقلها عن الرسول.

يعجبني بصفة خاصة ويستولي على قلبي أحيانًا حديث عن الرسول عندما أخذت منه مكان الأنثى من الرجل ثم تلامس جلديهما، فقال لها: ذريني أتعبد لربي ساعة!

المتأمل لمثل هذا المطلب يجد أن الرسول يستأذنها في أمر عبادته - وهي - نفل - قطعًا لا فريضة - ذلك أن من حقها عليه أن يعاشرها ويهبها وقته ورجولته ما تشاء، حتى قالت عنه: كان خلقه القرآن.

محمد عندما يتزوج بعائشة فهو المنعم عليها بهذه الصلة الكبرى، وعائشة هي بنت المناصر له والمعين في كل الشدائد، ولا نود الحديث عن عتيق بن أبي قحافة، صديق محمد وحواريه وصاحبه في الهجرة وخليفته وصهره الآن؛ لأنه حديث طويل ذو شجون.

تصدت العديد من الكتابات حول عائشة لتبرز لنا شيئًا ربما كان هامًا عند الأنثى بصرف النظر عن الجنس والدين والعرف والطبقة الاجتماعية، وهي الأمومة.

فلِمَ لم تنجب عائشة؟ على حين أنجبت مارية؟

يا ويح المصريات جميعًا يلدن، فهذه هاجر وتلك مارية وما يلدن إلا رجالاً!

قيل إن مرضًا ما ألمَّ بها في صغرها أدى إلى مثل هذا الذي كان يشبه العقم، وإن أرجح البعض الأمر كله إلى أنه كان وقتيًا، ولو طالت حياة الرسول فوق ما كانت لربما أنجبت منه.

كان الرسول يذبح الشاة، ويقول: اذهبوا بها إلى صواحب خديجة. وكان يُكرم وفادة بعض النسوة ويقول عنهن: كانت

تأتينا أيام خديجة، وما زال يحفظ لها عهدها وودها، حتى غارت عائشة وصاحت ثائرة ثورة الأنثى الغيرى، التي في نفسها مكانة لا يرتقي إليها أحد من حولها، فها هي زعيمة نساء النبي، وها هي حظيته وأقربهن جميعًا إلى قلبه، وربما يبرئها من السماء لإفك أُفتري عليها، وأبوها أبو بكر هو من هو الرجل الذي لا يستطيع مسلم أن يفخر عليه بشيء ويستطيع هو أن يفخر على كل المسلمين بأشياء كثيرة، حتى قال عنه الرسول: كل من مدَّ لنا يدًا في الإسلام جازيناه بها إلا أبا بكر فإن له في الإسلام يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة!

وها هو عمر الفاروق وهو من هو يقول في سقيفة بني ساعدة يوم البيعة لأبي بكر: لئن تضرب عنقي في غير معصية لله تعالى خير عندي من أن أتقدم قومًا فيهم أبو بكر.

نقول عندما أخذ الرسول يصل أصحاب وأقارب خديجة ثارت ضده قائلة له: ما زالت تذكر تلك العجوز الشمطاء وقد أبدلك الله خيرًا منها.

هنا يغضب الرسول الكريم الغضبة التي لا يغضب مثلها أبدًا وعائشة لا تعود إليها مرة أخرى أبدًا، يقول الرسول الكريم في غضبته منها: والله ما أبدلني الله خيرًا منها، صدقتني حين كذبني الناس، و. و. و..... إلخ وأنجبت منها وما أنجبت غيرها.

لن نعود لفضل خديجة ولا نود أن نقيّمها من ميزان محمد، فهو ميزان كله معها.

لكننا نقول إن عائشة كانت قد تطاولت بمنزلتها وظنت أنه يمكنها أن تحتل مكانة في قلب محمد كان قد خصصها لخديجة، ولن تستبدل بها غيرها، ولو كن من الملائكة العالين.

لكن ما الدافع الذي يجعلها تتسامق إلى هذا المكان الرفيع؟

تظن عائشة أنها خير من خديجة؟ وبمَ؟

لو أنها اغترت بالقرآن وما جاء فيها فهو وإن كان يحمل في طياته تبرئة لها، لكنه يحمل مظانًا أخرى لا نبحثها هنا. تتسامق بمكانة أبيها؟ وهذا عند الرسول ليس كفة ترجيح، فعلي بن أبي طالب، قد مات أبوه على غير الإسلام، وكان ينصر الإسلام في الطور المكي فوق ما كان يناصره كل المسلمين في مكة، ولم يتطاول علي به يومًا ولا ذكره، حتى إن العباسيين عند قيام دولتهم ألمحوا لمثل ذلك. ثم إن مكانة الصدِّيق لنفسه وقلما تنفع غيره.

هل قارنت بين حالها ومكانتها من الرسول، وغيرها من بقية النساء الأخريات جميعًا، فأرادت أن تكون الأولى حتى على الماضية؟

لا ريب أن من حقها ما طمعت إليه نفسها، فلا نظن أن قريبًا من محمد في الحياة يشقى في الآخرة، وكلما اقترب المرء فوق غيره – منه – فالتصاقه به يوم الحاقة يكون أشد، ثم إن النفثات الروحية التي يبثها أعظم كثيرًا من أن تُقاوم.

بخلدي أن زفرة من محمد واحدة إن امتزجت بروحه قادرة أن تحيل الموات إلى حياة، والسكون إلى حركة، والحب والكراهية إلى حب ومودة، والكفر نفسه إلى إيمان، ما لم يطبع الله على القلوب كقلب حييً بن أحطب المعادي له أبد الدهر، وإن كان الرسول على الحق وهو المنتظر وإن لم يتسمى مسيًا أو مسيح بني إسرائيل.

يُكنى محمد في المدينة "أبا القاسم" والقاسم هذا هو ولد خديجة، فهل كان ينساها ليصل مكانها بغيرها وينسى كُنيته هذه؟

إن عائشة قد ارتقت مرتقًا صعبًا، ولم تستطع بلوغه، وقيل إن غضبة الرسول لم تتكرر. علمت وقتها أن لها مكانة لا ينبغي عليها تجاوزها.

وأود أن أكرر هنا شيئًا – شدَّ ما أريد تكراره دومًا – قال لها

الرسول الكريم بعد أن مس جلده جلدها: ذريني أتعبد لربي ساعة.

فيقوم ويغتسل ويصلي ويسجد ويُطيل في السجود والدعاء حتى لتظنه قد قبض.

نرى أن المتعة الجسدية والجنسية التي حام حولها غربان كثيرة عنده لا تشغله عن متعة الروح، لكأني أراه يزهد متع الجسد هذه مع إعطائه لمستحقيها حقهم منها فإنه يذهب إلى المتعة الخالدة، متعة الصلاة لله.

إن عطايا محمد الروحية - الإيمانية - أعظم عندنا من كل شيء آخر، ولسنا نحاول أن ندخل في الروحانيات أو التصوف؛ فلقد وضعنا حاجزًا يذبنا عن التصوف ومدلولاته كلما اقتربنا منه.

فهذا الذي لا تشغله بكر في ريعان صباها حين يناكحها ولا ينسى في حضرة متعتها متعة ربه، يمكنه أن ينسى خديجة الطاهرة لأجل تلك الغراء؟

قلنا إن عائشة تركب مركبًا صعبًا خشنًا، ولن تنفر منه هي فحسب، بل لن تستطيع المضي فيه.

غارت هي وحفصة بنت عمر أن أكل الرسول عند غيرهما فقالتا له: نجد في فيك رائحة المعافير!

وما كانت معافيرًا بل عسلاً، فحرمه على نفسه فينزل قول الله في سورة التحريم، فهو ينتهي بأمر السماء عن مرضاة زوجاته في تحريم شيء على نفسه لم يحرِّمه الله عليه.

يحلو للبعض أن يقول: إن محمدًا ذهب مذهب إسرائيل حينما حرَّم على نفسه لحوم الإبل وكان يحبها، إذا ما عاد إليه يوسف.

لكن البون شاسع، فهذه نسوة تتدلل بمكانة أهلها عند زوجهن، وهو يستجيب، أليس هو القائل: استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن القوارير.

قيل لعمر بن الخطاب يومًا إن الرسول قد طلق زوجاته فيقول: كأن هذا الخبر عندي هو الصاعقة أو أشد. ثم يذهب إلى ابنته ويُعنفها حتى لا تسأل الرسول ما ليس عنده.

دخل أبو بكر الصديق مرة على الرسول وعائشة وكانا يتمازحان فقالت لزوجها: قُص على أبي ما كان بيننا.

فقال لها: بل قُصي أنتِ!

فراجعته بدلال الزوجة المقربة قائلة: بل قص أنت وأقصد.

فقام إليها أبو بكر ولطمها وهو يقول لها: أتقولين لرسول الله أقصد؟!

فقام الرسول حاجزًا بينهما ثم يلتفت إليها ويقول لها: أرأيت كيف أنقذتكِ من الرجل؟

فالصدِّيق دومًا مع محمد صديقه ورسوله ونبيه وهاديه قبل أن يكون مع ابنته، أليست ابنته تراجع الرسول عندما يأمر بأن يتقدم أبو بكر للصلاة وتريد أن يتقدم عمر لأن أبا بكر رقيق القلب يبكي عند تلاوته القرآن، فيقول لها: إنكن صويحبات يوسف.

إن الفترة التي عاشتها عائشة مع الرسول هي الفترة الذهبية من عمرها، ونستطيع أن نقول إنها شغلت وقته، واحتلت مساحة واسعة من الأحداث في هذه السنوات رغم قلتها، والروايات عنها مع الرسول كثيرة، منها حديث غيرتها وخروجها ورائه لتنظر إلى أين يذهب فتجده يذهب عند البقيع يستغفر لأصحابه الشهداء.

منها سباقها في أول حياتها وقرب نهايتها، وعندما سبقته في الأولى سبقها في الثانية.

ولا تكاد تبلغ بقية النسوة الأخريات اللاتي كُنَّ عند رسول الله نصف ما بلغته عائشة من أحداث.

ولكنها دومًا لن تصل إلى خديجة، بل: ولا زفرة من زفراتها.

لكنها تمثل الشباب في عنفوانه. وعائشة جانحة دومًا إلى ما يُرضيها، فلا يكاد يفارقها عقلها المتمثل لها دومًا بأن رأيها أصوب وأن معها الحق.

مات رسول الله وبويع أبو بكر خليفة، وعائشة مع زوجات الرسول أمهات المؤمنين، فُحرِّم عليها الزواج تحريمًا باتًا لا رجعة فيه، ومن ذا يجرؤ على اقتحام تلك الأهوال، فالسماء تنطبق على الأرض.

وهي في سنواتها الأولى ولما تبلغ الثانية والعشرين من عمرها فتتوارى خلف الأحداث إلا من أمور الفقة والرواية، ثم يجيء عهد عمر، فيتوارى فيه كل من ليس كعمر وكصفاته، ثم يجيء عهد بدأ الناس يشعرون فيه بدبيب الدولة، وحياة الحضارة بخيرات وفتوحات أخذت تتدفق على المدينة من كل حدب وصوب ذلك عهد عثمان، فتخالفه عائشة في أمور وتقول: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. وإن كنا لا نظنها تقول ذلك، فلما تخرج من يثرب يُقتل عثمان، فتعلم فلا يتحرك فيها ساكن، حتى تعلم بولاية عليٍّ بن أبي طالب، وكان يُحفظها عليه أنه في حادثة الإفك كان ينصح الرسول بتطليقها والزواج بغيرها وقوله للرسول: النساء كثير.

فعادت لتقول: قُتل عثمان مظلومًا. وهي شخصية عظيمة لها مكانتها عند الجميع، يحتمي في لظى غضبها الحاقدون والخارجون على عليٍّ، فتجيِّش الجيوش مع طلحة والزبير ضد عليٍّ، وتنبحها كلاب الحوأب فيصدق فيها قول الرسول: ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب. فتجأر وتريد الفرار، فيجيئوا لها بعشرات الرجال يشهدوا أنهم قد فارقوا منطقة الحوأب. ولا يزال الخطر يتهددها حتى تهزم وجيوشها .ويعيدها عليٌّ إلى المدينة في حراسة نسائية مشددة.

ومن بعدها تعتزل الحياة السياسية، وتموت وسط بيتها وأهلها.

ولا يسعنا إلا أن نقول إنها عاشت بعد النبي بنفس الصفات التي عاشت بها معه، شابة يغزها غرور الشباب، ثم يدفعها إلى التسامي بمكانتها من الرسول، وشريف نسبها وكثرة فضائلها ، فهي محظية الرسول، وابنة الصدِّيق، والحافظة عن الرسول نصف الدين كله.

هذبتها النبوة وأخلاقها ، لكنها لم تتفرغ لها تمامًا ، فكان يشاركها فيه غيرها.

لكن لعائشة أن تتيه وسط نساء الحياة كلهن وتقول: أنا الأنثى المختارة التي لم ينكحني سوى الرسول محمد.

لعمري لو تقدمت بهذه وحدها إلى السماء وعدالتها لدخلت الجنة حيث تشاء، لها منا ولأبيها – خاصة – السلام والتحيات ليوم نلتقي بهم عند ربهم.

الخاتمة

أخيرًا... هذه هي تأملاتنا حول أعظم النساء، ربما لم نقف عند بعضهن طويلاً، وكثيرات يحتجبن إلى أسفار خاصة عنهن، لكننا أردنا أن نسجل تأملنا السريع، وحاولنا إيجاز العبارة والتركيز على بواطن خاصة عندهن، فإن كنا نقصّر فهذا شأن الإنسانية، ولن أدعي لنفسي المروق من نواقصها.

وحاولت ألا أورد اقتباسات كثيرة من الكتب المقدسة، وهذه التأملات ليست أكاديمية قحة.

لكن هذه النسوة كُنَّ في عهد اتصال الإنسان بالسماء، قد رأينا ما رأينا عند بعضهن، فهل لنا أن نكتب الآن شيئًا عن نساء اليوم؟

لو وددت ذلك ربما ما أمكنني الارتباط بأنثى أبد الدهر، تحتج عليَّ الفتاة وتقول: هذا رأيك في النساء فلن أرتبط بك!

لكن أقول شيئًا هامًا قبل الحديث عن نسوة اليوم، كلنا نفعل المعصية بتفاوت في درجاتها ودرجات فعلنا لها، كبيرة كانت أم صغيرة، وما من إنسان عندنا إلا ويعص، مهما صغرت المعصية أو كبرت علم ذلك من علِمٍ وجهل من جَهل.

ومن يزعم أنه لا يفعل المعاصي فهو بلا عقل، ومرفوع عنه القلم، لا شك عندي في ذلك ولا أتبع في هذا مبدأ النصرانية: الإنسان يُخطئ لأنه ينحدر من آدم، وإنما أنا أرفض قول النصارى هذا لأن

خطيئتهم التي يتحدثون عنها دومًا تستدعي الفداء بدم ذكي، وهذا نفسه يناقض ديانتهم التي يزعمون، إن الديانة إن لم تقوّم سلوك الإنسان، فلا قيمة لها. ولو أن أتباع دين ما يتمسكون بمبادئه وخطاياهم تستدعي الفداء بدم ذكي فهو دين زائف.

بل يأتي الدين ليجعل من المجرم صالحًا، والكافر مؤمنًا والفاسد نافعًا، والخطايا طاعات.

أقول كل إنسان يخطئ لأن هذا هو الواقع، وهل اتفقت البشرية يومًا – كل البشرية – على أن الخطايا يجب فعلها، كذلك المرأة كالمعصية كلنا يقترفها وهو يعلم مغبتها، ولكن لا بد منها.

حتمًا ينقص الرجل إن لم تكتمل إنسانيته بامرأة، كل الرجال يشكون كلهم أجمعون، ومن لا يشكو لك يشكو لمرآته أو لضميره مهما ظن أنه سعيد في حياته؟

كنا قد انتهينا إلى أن الأمومة عند النساء ليست فطرة أو غريزة، بل هي ثقافة، وأن الأمومة غير المبنية على الإمتاع الجنسي، ليست أمومة بل مصاحبة وأن الأمومة عند المرأة هي الإعلان المقبول عن الرغبة الجنسية المشتهاة.

وأيضًا انتهينا إلى أن النفثات الروحانية عند المرأة لا تكتمل إلا بعد الإمتاع الجسدي، والخلوص من متع الجسد أو إشباعه ليخلص الإنسان لإمتاع روحه، ولا نقول هنا إن هذا يتوافق مع طبيعة الخلق وترتيبه، حتى إن الله عندما خلق آدم خلق الجسد قبلاً، ثم بث فيه الروح، فهذا لم يخطر ببالنا وإن كنا لا ننساه، لكنه أيضًا الواقع.

والذين يلهجون خلف إشباع متع الأرواح قبل الأجساد ولم يكونوا أنبياء، فهم بلا ريب يغالطون أنفسهم وربما لا يقبل الله ذلك منهم.

ليست المرأة كما يظن بعض الغوغاء هي الحضن الدافئ أو المرفأ الهنيء، وأن الحياة بدونها صحراء، وينقطع النسل بدونها، كلا ليست هذه هي المرأة، والمتأمل لتأملاتنا السالفة يجد أن المرأة هي السد الذي يفصل بين الرجل والشيطان، إلا من عصم الله.

وقد يخرج من بين الرجال من لا نستطيع وصف سلوكه بأي وصف، كذا المرأة، لكنهما يتداخلان معًا، عمد الكثيرون إلى إرجاع كل حرب أو أمر مشين إلى المرأة، وكأن الرجال لا دور لهم بل ظلال أو أنهم مجرد دُمى يتحركون بخيوط في أيدي النساء، وتُنسب إليهم الفعال، ويرجعون إليها كافة الفتن ويلصقون لها الدور الشيطلني المرجوم.

وآخرون وقفوا لهم على النقيض فيزعمون أن المرأة هي الواحة الفيحاء، بل والحديقة الغنّاء، وأنها هي الصوت الملائكي والضمير المتحرك في صدور الرجال، لولاها لأكل الرجال بعضهم بعضًا، ولولاها ما امتلأت الصدور إلا بالأحقاد والكراهية، والأيدي إلا بالسلاح والموت.

ويقف قوم لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، يعزون الفضل لأهله إن كان فضل، والشر لأهله إن كان ثمة شر مبين، ويسمون أنفسهم العقلانيين.

أما نحن فإن كان لنا أن نقول في المرأة شيئًا فإننا نعمد إلى الإيجاز التام فنقول:

"لولا إيماننا ويقيننا أن الأنبياء جميعهم جاءونا من أرحام النساء، لقلنا إن البشرية كلها – عدا آدم وحواء – قذرة قذرة.

تلك كانت آخر كلماتنا في هذا السّفر، ولا نخجل مما فيه

من أخطاء، وكما قلنا في المقدمة: هذه التأملات هي نحن وقد نتبدل نحن ونصير غير ما نحن فيه اليوم، هنا نقولها بشموخ وتعالٍ نتبرأ من هذه التي تمثلنا حين نتبدل، وإن كنا نظن أن الأرضية العقائدية والخلفية الثقافية التي أوردتنا تلك الموارد، إن لم يكن مستحيلا تبديلها فهو من أصعب الصعاب.

علاء الدين سعد جاويش

٢٠٠٧م

فهرس

بين يدي الكتاب ٧

مُقدّمة ١١

الفصل الأول : زوجات الأنبياء ٢٧

الفصل الثاني : زوجات إبراهيم ٣٧

الفصل الثالث : راحيل ٤٧

الفصل الرابع : امرأة فرعون ٥٣

الفصل الخامس : امرأة العزيز ٥٩

الفصل السادس : زوجة أيوب ٧٧

الفصل السابع : بلقيس ٨٥

الفصل الثامن : مريم بنت عمران ٩٥

الفصل التاسع : خديجة بنت خويلد ١٣١

الفصل العاشر : عائشة بنت الصديق ١٧٣

الخاتمة ١٨٦

المؤلف

علاء الدين سعد جاويش

صدر له:

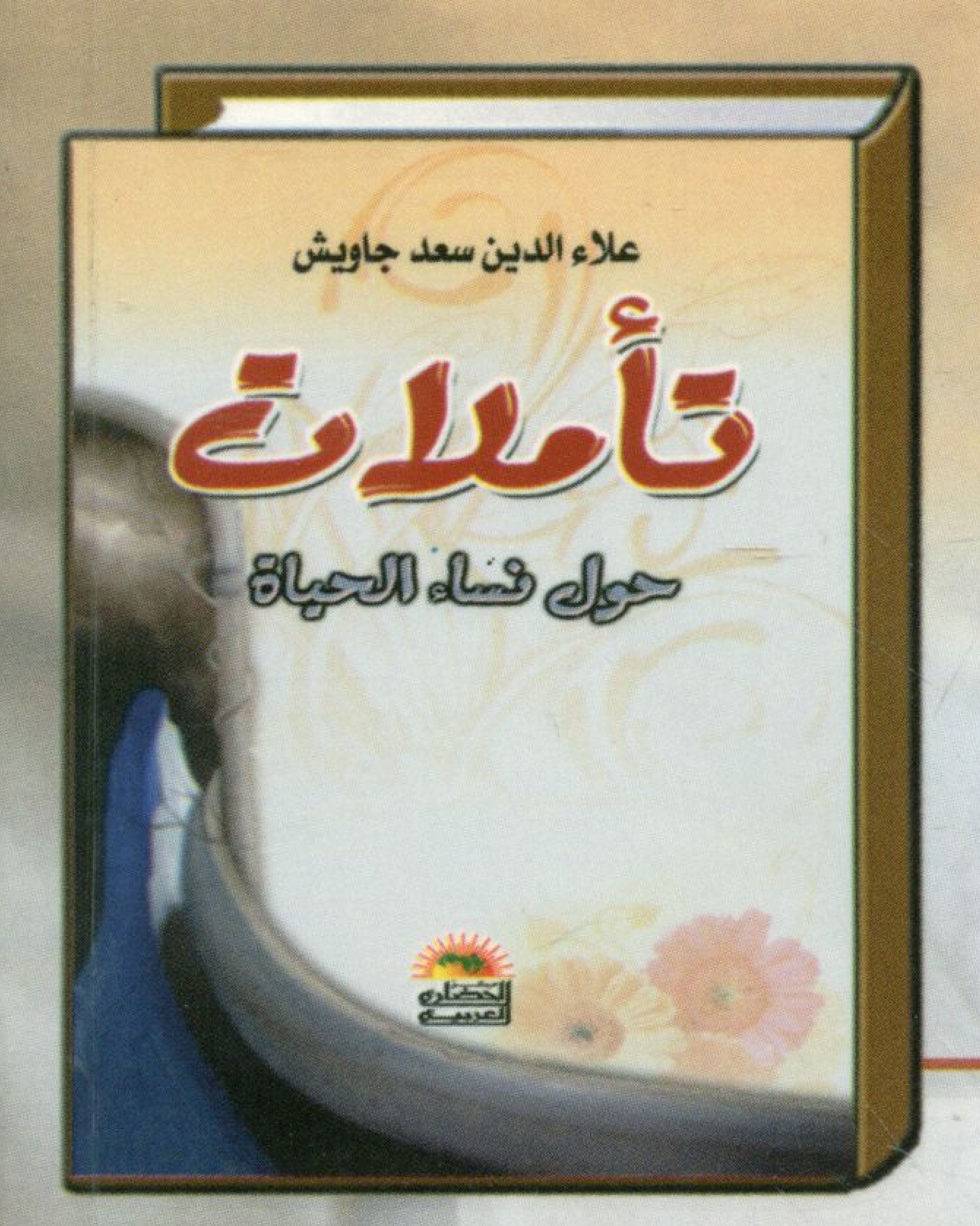
- خسائر محتملة، رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٩.
- الآنسة راحيل، رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠١٠.
- تأملات حول نساء الحياة، مركز الحضارة العربية، ٢٠١٠.

تحت الطبع:

- الجنوح، رواية.

من قائمة الإصدارات إسلاميات – فكر ديني

نظرة الغرب إلى الإسلام	ترجمة: د. على فهمى خشيم
المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل	التجانى بولعوالى
نظام الحكم في الإسلام	د.صابر محمد دياب
العروبة والإسلام	مجدى رياض
المقدس وغير المقدس في الإسلام	مجدى رياض
فقه الصلاة	أحمد نور الدين سيد
عقيدة الإسلام	أحمد نور الدين سيد
الإسلام والغرب الأمريكى	محمد إبراهيم مبروك
الإسلام النفعى(الإسلام الذى تريده أمريكا)	محمد إبراهيم مبروك
الإسلاميون الجدد ..إلى أين؟	أسامة عبد الحق
عبد الرحمن بدوى فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام	د. سعيد اللاوندى
التطرف الدينى ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق
الإخوان والسلطة (تحالفات واهية وصراعات دامية)	حمادة إمام
الإخوان والعسكر (قصة الجبهة الإسلامية والسلطة في السودان)	حيدر طه
الخروج على الحاكم في الفكر السياسى الإسلامى	د. جمال الحسينى أبو فرحة
الكلمة والسيف "محنة الرأى في تاريخ المسلمين"	صالح الوردانى
الحركة الإسلامية في مصر	صالح الوردانى
الشيعة الإسماعيلية الدعوة العقيدة والأثر	خالد السيوطى
عبود الزمر.حوارات ووثائق	أحمد رجب
مدعو النبوة	جمال عبد الرحيم
الحكومة والسياسة في الإسلام	ترجمة: سيد حسان
النبى الخاتم، هل وجد؟ ومن يكون؟	د. جمال الحسينى أبو فرحة
حقيقة الكتاب المقدس	د.جمال الحسينى أبو فرحة
عيسي المسيح والتوحيد	محمد عطا الرحيم، ترجمة: عادل حامد





في البداية لابد و أن نقر بأننا نجهل الكثير مما يدور حولنا، ناهيك عما سيكون في المستقبل، أما الماضي فجهلنا به أكثر، ذاك كله ينطبق على الحياة من خارجنا، أما الحياة داخلنا فلا نكاد نعرف عنها حتى ما يدور بيننا؛ ربما لأننا لم نلتفت إليها أساسًا.

في هذه التأملات - التي أردتها قصيرة - نحوت فيها منحىً مختلفًا على غير ما كتب السابقون؛ فزوايا رؤية المرأة لا تتكشف كلها، و إن بحثناها من جميع جوانبها.

ففي الأديان لا يصح أن نتساءل عن الكثير من الأمور الغيبية، و أحياناً نُسلِّم و إن فكرنا فتفكيرنا لا يخرج عن نطاق إثبات النص، و لكن أليست النصوص تأتي لغاية محددة لا نكاد نفارقها إن نحن فكرنا في زاوية مغايرة للمضمون الذي جاء به النص؟

وتنطلق هذه التأملات من إطلاق سؤال عريض بعض الشيء في ذاته منحصر في نطاقه، ألا وهو : في كل علاقة بين امرأة و رجل من هؤلاء، أيهما كان أكثر احتياجًا للآخر، المسيح أم مريم ؟ محمد أم خديجة ؟ نوح أم زوجه ؟ أيوب أم امرأته ؟ آدم أم حواء؟

من خلال كشفنا عن هذه العلاقات نكشف عن ملامح جديدة في حياة تلك النسوة، ربما تُرينا هذه التأملات ما سكت عنه النص الإلهي.



